السنّة النبوية مصدراً للتربية الاسلامية

الدكتور سعيد اسماعيل علي *

مقدمـة :

يفرق كاتب هذه السطور بين فئتين من مصادر التربية الإسلامية :
الفئة الأولى : هي (الأصول)، وتشمل القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة.
والفئة الثانية : هي (التراث الإسلامي) ، ويشمل آراء الفقهاء والعلماء والمفكرين والفلاسفة والمربين الإسلاميين التي تتناول، بطريق مباشر أو غير مباشر، مسائل وقضايا التربية والتعليم، فضلا عن الخبرة العملية والجهود التنفيذية التي شهدتها التجربة التأريخية في البلدان الإسلامية عبر عصورها التي تبدأ من عصر الخلفاء الراشدين إلى الدولة العثمانية .

ولأن هذه التربية « إسلامية »، تكون الأولوية ــ بطبيعة الحال ــ للفئة الأولى عندما نريد التعرف على الموقف الإسلامي إزاء قضية من قضايا التربية والتعليم. فالقرآن الكريم هو كتاب الله عز وجل الذي نزل على خاتم الرسل والنبيين محمد ﷺ دستورا للمسلمين، والسنّة النبوية هي الشارحة والمؤيدة والمبينة لهذا الدستور، بحيث يصبح من المحتم على من يستظل براية الإسلام أن يلتزم في تنشئته لنفسه ولبنيه ولأبناء الآخرين من المسلمين بهدي هذا الدستور وبيانه الشارح .

أما بالنسبة للفئة الثانية، فلها قيمتها «الفكرية» من حيث الإنارة والإرشاد والإثارة العقلية ، ولها قيمتها «التأريخية» من حيث تمثلها لتجربة الأمة الإسلامية فكراً وعملًا، مما يجعلها تشكل حلقات أولى لا بد أن تتصل حلقاتنا الحالية بها أوثق اتصال. لكن هذا الاتصال ليس قائما على ضرورة «الاتباع» وإنما على «الموقف الناقد» الذي يتضمن بدائل متعددة كالأخذ أو الرفض، ومثل التعديل والتطوير والإضافة.. الخ .

ودراستنا الحالية تتناول (السنّة النبوية) مصدراً واصلًا رئيساً للتربية الإسلامية، وذلك تحديدا لمجال الدراسة ، حتى يمكن أن يتوافر لها ما هو مفروض من التعمق والإحاطة، على ألا نقف فيها على مجرد التناول المنهجي، وإنما نتبعه بتطبيق يتناول عدداً من المسائل والقضايا التربوية، وبخاصة تلك التي تتناول تنشئة الشخصية السوية .

ونحب أن ننبه بداية على أننا اقتصرنا على صحيحي البخاري ومسلم فقط لبيان موقف الرسول ﷺ

---

* أستاذ أصول التربية ــ كلية التربية، جامعة عين شمس .

مما عرضنا من مسائل وقضايا، آملين أن يشكل هذا الجهد «لبنة»، تضاف إلى لبنات الآخرين، من أجل بناء علمي للتربية الإسلامية .

أولا :تعريفات ومقدمات :

معنى السنّة :

السنّة في اللغة، الطريقة، حسنة كانت أو سيئة، فسنّة كل أحد ما عهد المحافظة عليه والإكثار منه ، سواء كان ذلك من الأمور الحميدة أو غيرها. قال ﷺ ، « من سن سنة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ». وقيل السنّة خاصة بالطريقة الحسنّة، فإن أطلقت السنّة انصرفت إليها، ولا تستعمل في غيرها إلا مقيدة، فيقال سنّة سيئة [1].

أما السنّة في اصطلاح المحدثين، فهي كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خلقية، أو سيرة ، سواء كان ذلك قبل البعثة ، كتحنثه في غار حراء ، أم بعدها .

والسنّة بهذا المعنى مرادفة للحديث النبوي .

أما في اصطلاح علماء أصول الفقه، فهي كل ما صدر عن النبي ﷺ ، غير القرآن الكريم، من قول، أو فعل ، أو تقرير ، مما يصلح أن يكون دليلا لحكم شرعي .

وفي اصطلاح الفقهاء، هي كل ما ثبت عن النبي ﷺ ولم يكن من الفرض ولا من الواجب، فهي الطريقة المتبعة في الدين من غير افتراض ولا وجوب [2].

ويقرب من السنّة في المعنى، كلمات «السبيل، الصراط، الطريقة، الطريق المستقيم » [3] مثل قوله تعالى ﴿ **ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾ [4] ﴿**والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم** ﴾ [5] و﴿ **وألّو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً** ﴾ [6] و﴿ **وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه** ﴾ [7] و﴿**يهدي الى الحق وإلى طريق مستقيم** ﴾ [8].

---

١ ــ محمد زكريا البرديسي ، أصول الفقه : ١٨٩ .
٢ ــ محمد عجاج الخطيب ، السنّة قبل التدوين : ١٥ .
٣ ــ بدران أبو العينين ، أصول الفقه : ٧٢ .
٤ ــ النساء : ١١٥.
٥ ــ يونس : ٢٥ .
٦ ــ الجن : ١٦ .
٧ ــ الانعام : ١٥٣ .
٨ ــ الاحقاف : ٣٠ .

ويقابل كلمة سنّة، كلمة «بدعة»، و«سبيل المفسدين أو سبيل المجرمين» الواردة في قوله تعالى : ﴿وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾ [1] وقوله :﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ [2]. ويقال فلان على بدعة، إذا عمل على خلاف فعل الرسول .

منزلتها بالنسبة للقرآن الكريم :

والسنّة هي الأصل الثاني من أصول التربية الإسلامية ، فالقرآن مقدم، وهي تالية له، لأن القرآن كلام الله تعالى الموحى به إلى رسوله، والمتعبد بتلاوته، والمنقول إلينا بالتواتر، فهو وحي بلفظه ومعناه، ومقطوع به جملة وتفصيلا، وهو ينبوع الملة، ومصدر الشريعة، وأصل للتربية. أما السنّة فلفظها غير متعبد به، والمقطوع به جملتها لا تفصيلها، وإليه مرجع الاعتداد بها. ثم هي بيان للكتاب. ولا شك أن البيان مؤخر عن المبين [3].

وأما نسبة السنّة إلى القرآن من جهة ما ورد فيها من القضايا، فإنها لا تعدو أن تكون واحدا من ثلاثة :

١ ــ إما أن تكون سنّة مقررة ومؤكدة لما جاء في القرآن، فيكون الامر له مصدران، وعليه دليلان : دليل مثبت من آي القرآن، ودليل مؤيد من سنّة الرسول. ومن هذا النوع : الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والنهي عن الشرك بالله، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، وغير ذلك من قضايا دلت عليها آيات القرآن، وأيدتها سنن الرسول ويقام الدليل عليها منها [4].

٢ ــ ما كان بيانا لما ورد في القرآن، وإظهارا للمراد منه ، وإزالة لما فيه من خفاء، وتوضيحاً وشرحاً لما غمض منه. وهذا ما تبينه الآية الكريمة : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ [5]. وكان عمر رضي الله عنه يقول : سيأتي قوم يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله عز وجل .

وقال علي بن أبي طالب لعبد الله بن عباس حينما بعثه إلى الخوارج : « ولا تخاصمهم بالقرآن ، فإنه حمال ذو وجوه، ولكن حاججهم بالسنّة فإنهم لن يجدوا عنها محيصا ». ولذلك لما استدل الخوارج على

---

١ ــ الأنعام : ٥٥.

٢ ــ الأعراف : ١٤٢.

٣ ــ علي حسب الله ، أصول التشريع الإسلامي : ٣٧ .

٤ ــ عبد الوهاب خلاف ، علم أصول الفقه : ٢٩ .

٥ ــ النحل : ٤٤ .

كفر مرتكب الكبيرة بطواهر بعض النصوص ، كقوله تعالى بعد الأمر بالحج : ﴿ **ومن كفر ،فإن الله غني عن العالمين** ﴾ [1]، لم يجد علي أبلغ في الرد عليهم من السنّة إذ قال : « وقد علمتم أن رسول الله ﷺ رجم الزاني المحصن، ثم صلى عليه، ثم ورثه أهله. وقتل القاتل، وورث ميراثه أهله. وقطع (يعني يد السارق)، وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفيء، ونكحا المسلمات. فأخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم. وأقام حق الله فيهم ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام . ولم يخرج أسماءهم من بين أهله » [2].

ويكون بيان السنّة للقرآن على ثلاثة أوجه :

أ ــ تفصيل المجمل : ومثال السنّة المبينة لمجمل القرآن، بيان لفظ الصلاة والزكاة والحج الواردة في القرآن، فإن الله تعالى أمر بالصلاة في كتابه من غير بيان لمواقيتها وأركانها وعدد ركعاتها، فجاءت السنّة النبوية مبينة ذلك ــ فصلى عليه السلام وقال : « صلوا كما رأيتموني أصلي ». كما ورد الحج في القرآن من غير بيان مناسكه، فجاءت السنّة مبينة ذلك، وقال ﷺ : « خذوا عني مناسككم ». وأيضا ورد في وجوب الزكاة من غير بيان لما تجب فيه، أو المقدار الواجب. فبينت السنّة ذلك فقال ﷺ في زكاة النقدين : « هاتوا ربع عشر أموالكم » .

ومن الآيات المجملة التي بينتها السنّة، قوله تعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر** » [3] ، فإن السنّة بينت أن المراد بالخيط الابيض، بياض النهار، والمراد بالخيط الأسود، سواد الليل .

ب ــ تخصيص العام : ومن ذلك أن الله تعالى أمر أن يرث الأولاد الآباء أو الأمهات على نحو ما بين في قوله تعالى : ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ... ﴾ [4](الآية)، فكان هذا الحكم عاماً في كل أصل مورث، وكل ولد وارث، فقصرت السنّة الأصل المورث على غير الأنبياء، بقوله ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة » .

جـ ــ تقييد لمطلق القرآن : كما في قوله تعالى : ﴿ **السارق والسارقة ،فاقطعوا أيديهما** ﴾ [5] ، فإن قطع اليد لم يقيد في الآية بموضع خاص، ولكن السنّة قيدته بأنه من الرسغ . كذلك قوله تعالى :

---

١ ــ آل عمران : ٩٧

٢ ــ علي حسب الله ، أصول التشريع الاسلامي : ٣٨ ــ ٣٩ .

٣ ــ البقرة : ١٨٧.

٤ ــ النساء : ١١

٥ ــ المائدة : ٣٨ .

﴿ **وليطوفوا بالبيت العتيق** ﴾ [1] قد أوجب الطواف مطلقا، ولكن السنّة الفعلية، قيدته بالطهارة .

٣ ــ قضايا جديدة لا أصل لها في القرآن. وهذا في رأي فريق من العلماء، ومثلوا بذلك بتحريم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وتحريم الذهب والحرير للرجال، وحد شرب الخمر.

والاحكام الخاصة بهذه القضايا لا تتناقض مع أحكام القرآن، بل تلتقي معها، ولهذا جاءت الأوامر القرآنية بطاعة الرسول استقلالا. يقول العلماء : أعاد القرآن لفظ (أطيعوا) في قوله تعالى : ﴿ **يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ [2] بالنسبة للرسول، ولم يعده بالنسبة لأولي الأمر، إشارة إلى أن طاعة الرسول واجبة استقلالا أما طاعة أولي الأمر فواجبة تبعاً لا استقلالا [3].

ويرى آخرون، أن كل ما جاءت به السنّة له أصل في القرآن، وإن هذه الأحكام التي يظن أنها جديدة، هي نتيجة إلحاق فرع بأصله الموجود في القرآن، يخفى الحاقه به، ومثال ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ **واستشهدوا شهيدين من رجالكم ..** ﴾ [4].. **فألحقت السنّة اليمين مع الشاهد بشهادة الشاهدين ، لأن لليمين في إثبات الحقوق مكاناً، يقول الله تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا** ﴾ [5]. ومثاله أيضاً قول الله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم في الرضاعة ...** ﴾ [6] فألحقت السنّة الأم والأخت الرضاعية، وسائر القرابات من الرضاعة بقوله عليه السلام « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » تطبيقا لما اقتضاه النص القرآني، أو هي نتيجة إلحاق بأحد أصلين موجودين في القرآن، لا يظهر وجه إلحاق بأحدهما. ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **يحل لهم الطيبات ويحرم الخبائث** ﴾ [7]، ومن الأشياء ما يشتبه إلحاقه بالطيبات أو بالخبائث، فألحقت السنّة الحُمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير بالخبائث ،

---

١ ــ الحج : ٢٩

٢ ــ النساء : ٥٩

٣ ــ زكريا البري، أصول الفقه الإسلامي : ١٩٧١.

٤ ــ البقرة : ٢٨٢

٥ ــ آل عمران : ٧٧

٦ ــ النساء : ٢٣.

٧ ــ الاعراف : ١٥٧.

والحبارى [1] بالطيبات . والشيء نفسه يمكن أن يقال بالنسبة لتحليل الله شرب ما لا يسكر.

وجوب العمل بها :

لكي نعرف مكانة السنّة النبوية في بناء التربية الإسلامية مما يوجب العمل بها، يجب أن نعرف مهمة رسول الإسلام محمد ﷺ [2].

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ،ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ،وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ [3]. وهذه الآية التي تكرر معناها أيضا في سورة أخرى تبين بوضوح أن مهمة الرسول ﷺ لا تنحصر في تبليغ الكتاب الذي يتضمن كلام الله تعالى إلى الناس وتلاوة آياته، بل من مهمته أيضا ثلاث نواح أخرى هامة، هي :

أ ــ تعليم هذا الكتاب، أي تفهيم الناس معاني آياته ، ومقاصد نصوصه وأوامره ونواهيه، وكشف معالم الطريق التي يدعو الناس إليها ، وتحديد حدودها، ليمكن للمؤمنين تطبيق نصوصه بصورة تحقق أغراضها العامة الإصلاحية، وتحافظ على روحها .

ب ــ تعليم الحكمة وإيضاح طرقها وأساليبها في القول وفي العمل، وفقا لقوله تعالى في موطن آخر : ﴿ **أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ [4]. ذلك لأن العمل بأوامر القرآن وتطبيق ما جاء فيه يحتاج إلى الحكمة التي هي الثمرة التجريبية للعقل الناضج في الإدارة والتدبير. فالحكمة هي الكفيلة بحسن التطبيق والمحافظة على المقاصد الأساسية العامة في التربية والتشريع .

جـ ــ تطهير قلوب المؤمنين وأعمالهم من الملابسات التي قد تشوبها، فتفسدها، وذلك بزرع الاخلاص في نفوسهم والإيثار وحب الخير، ووزن الأمور بميزان المصلحة العامة لا بميزان الأهواء والمصالح الخاصة، وهذا معنى تزكيتهم .

فهذه المهمات الثلاث التي قام بها الرسول، والتي هي منبثة في صفحات حياته ومراحلها كلها في أقواله وأفعاله ، يجب على المؤمنين في جميع العصور معرفتها، لأنها ترسم الطريقة

---

١ ــ الحبارى: طائر على شكل الاوزة طويل العنق، رمادي اللون، الفيومي، المصباح المنير : حبر .
٢ ــ مصطفى أحمد الزرقا، في الحديث النبوي: ١٠ .
٣ ــ آل عمران : ١٦٤.
٤ ــ النحل : ١٢٥.

الصحيحة في فهم التربية وتطبيقها، وليس لها مصدر يرجع إليه إلا السنّة النبوية، لأن الرسول وحده هو فيها القدوة، وللمؤمنين فيه الأسوة .

والبراهين على وجوب العمل بالسنّة عديدة، يمكن أن نذكر منها ما يأتي :

١ ــ نصوص القرآن : فإن الله سبحانه في كثير من آي الكتاب الكريم، أمر بطاعة رسوله، وجعل طاعة رسوله طاعة له، وأمر المسلمين إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله وإلى الرسول، ولم يجعل للمؤمنين خياراً إذا قضى الله ورسوله أمرا، ونفى الايمان عمن لم يطمئن إلى قضاء الرسول ولم يسلم له، وفي هذا كله برهان من الله على أن تربية الرسول هي تربية إلهية واجبة الاتباع .[١].

قال تعالى : ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول** ﴾ [٢]. وقال سبحانه : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ [٣]، وقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ [٤]. وقال : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ [٥]. وقال : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ [٦]. وقال : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [٧]. وقال : ﴿ **وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ [٨]. فهذه الآيات تدل، باجتماعها وتساندها، دلالة قاطعة على أن الله يوجب اتباع الرسول .

٢ ــ أنّ القرآن، كالدستور الأساسي في القوانين الوضعية، جاء بقضايا مجملة لا يمكن معرفة تفصيلاتها إلا ببيان الرسول لها ، كما اوضحنا ذلك من قبل .

٣ ــ أنّ القرآن يقرر أن الرسول ﷺ يتكلم عن الله في قوله تعالى : ﴿ **وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى** ﴾ [٩]. وأنه قد أنزل عليه الحكمة وأفاض عليه من علمه في قوله تعالى :

---

١ ــ عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه : ٣٧ .
٢ ــ آل عمران : ٣٢.
٣ ــ النساء : ٨٠ .
٤ ــ النساء : ٥٩ .
٥ ــ النساء : ٨٣.
٦ ــ الأحزاب : ٣٦ .
٧ ــ النساء : ٦٥ .
٨ ــ الحشر : ٧ .
٩ ــ النجم : ٣ــ٤.

﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم** ﴾ [1] . وأنه مأمور بالتبليغ في قوله تعالى ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته** ﴾ [2]

٤ ــ وأما السنّة ، فمنها حديث معاذ حين بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن ، ومنها ما روي عن أنس بن مالك وزيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خاطبهم بمسجد الخيف الموجود في منى، فقال : « نضر الله امرءا سمع مقالتي فحفظها ووعاها ». وما روى الإمام أحمد وغيره عن أبي نجيح العرباض بن سارية السلمي أنه قال : « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فأوصنا، قال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وانه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيرا، فعليكم بسنتي.. عضوا عليها بالنواجذ ...» .

وما روى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله بعد أن حرّم أكل بعض الحيوانات يوم خيبر، قال : «يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكة يحدث بحديثي، فيقول : بيني وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حراما حرمناه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله » [3].

٥ ــ إجماع الصحابة في حياته ﷺ، وبعد وفاته، على وجوب اتباع سنته . فكانوا في حياته يمتثلون لأوامره ونواهيه وتحليله وتحريمه، ولا يفرقون في وجوب الاتباع بين حكم أوحى إليه في القرآن، ورأي صدر عن الرسول نفسه. وكانوا بعد وفاته إذا لم يجدوا في كتاب الله حكم ما نزل بهم، رجعوا إلى سنة رسول الله. فأبو بكر كان إذا لم يحفظ في الواقعة سنة، خرج فسأل المسلمين : هل فيكم من يحفظ في هذا الأمر سنّة عن نبينا ؟ وكذلك كان يفعل عمر وغيره ممن تصدى للفتيا والقضاء من الصحابة، ومن سلك سبيلهم من تابعيهم وتابعي تابعيهم ، بحيث لم يعلم أن أحدا منهم يعتد به خالف في أن سنّة رسول الله إذا صح نقلها وجب اتباعها .

ثانيا : جوانبها التربوية :

ما كان للإسلام الذي خاطب الناس بالعقل أن يعتمد في دعوته إلى طاعة الرسول على مجرد « النصوص » التي أشرنا إليها، ولو أنها في حد ذاتها كافية ما دام الإنسان قد آمن برسالة الإسلام. ولكن الرسول ﷺ يقدم لنا ــ نحن المربين ــ من خلال حياته العملية، ومن خلال أحاديثه، العديد من اللمحات والنظرات والمواقف ما يشكل في جملته معينا رائعا نستطيع أن نغترف منه كثيراً في عالم التربية والتعليم، وهذا هو بعض ذلك :

---

١ ــ النساء : ١١٣.

٢ ــ المائدة : ٦٧.

٣ ــ الامام الشافعي، الرسالة : ٨٩ــ٩١ .

١ ــ المناخ الأسري وأهميته في بناء الشخصية :

مكانة الأسرة تربويا : ليس من شك في أن الأسرة لبنة من لبنات المجتمع الذي يتكون من مجموعة أسر يرتبط بعضها ببعض. ومن الطبيعي أن البناء المكون من لبنات، يأخذ ما لهذه اللبنات من قوة أو ضعف، فكلما كانت اللبنات قوية ذات تماسك ومناعة، كان المجتمع المكون كذلك قويا ذا تماسك ومناعة، وكلما كانت اللبنات ذات ضعف وانحلال، كانت الأمة كذلك ذات ضعف وانحلال (١).

لكن الأسرة لا تكون صالحة بذاتها، وإنما بالافراد الذين تتكون منهم، كما أن شخصية الفرد منذ بدأ تكونها داخل الأسرة أيضا تتأثر تأثرا واضحا بالمناخ السائد فيها، ومن هنا نجد الرسول الكريم يحرص حرصا شديداً على الإرشاد إلى كل ما من شأنه أن يوفر مناخاً أسريا صحيا يكون فعالا في تنشئة النشء في صورة سوية بالمواصفات الإسلامية .

بناؤها : وإذا كانت الأسرة لبنة من لبنات المجتمع، فالزواج هو أصل الأسرة . ولا نعرف دينا من الأديان السماوية، إلا وكان للزواج فيه المكان الأول مما يستدعي العناية والاحترام، وكذلك لا نعرف أمة من الأمم التي تعرف قيمة الحياة، إلا كان الزواج لديها آخذا تلك المكانة من العناية والإهتمام. وليس ذلك لأن الزواج أصل الأسرة فقط، بل لأنه ــ أيضا ــ مما تدعو إليه الفطرة وتقضي به الطبيعة، لذلك نجد حرص الرسول على نصح الشباب بأن يتزوج قائلا :

« يا معشر الشباب ، من استطاع الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم » (٢)

كذلك عُنى الرسول ﷺ بجملة من الوسائل التي من شأنها ــ إذا روعيت، وحوفظ عليها ــ كانت قوة في حياة الأسرة وقوة في استمرار الحياة الزوجية ووقايتها من التعرض للتدهور والإنحلال. وكان أول ما تجب مراعاته من تلك الوسائل قبل الإقدام على الزواج، أن يتعرف الطرفان كلاهما على صاحبه، فلا يُتركان للمصادفة .

واختيار طرفي العلاقة في نظام السنّة ملاحظ فيه معاني الاستقرار والاستمرار والسكن. ولا نتجاوز الواقع إذا قلنا إن هذه المعاني هي قاعدة الاختيار في الإسلام ، ومظهرها: الدين والخلق. ولهذا بالغ الرسول ﷺ في التحريض على ذات الدين وذي الدين، فقال :« تنكح المرأة لاربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها » (٣) ، ثم يركز على الجانب الديني فيقول « فعليك بذات الدين تربت يداك ». وقال : « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته، فزوجوه، إلّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

---

١ ــ محمود شلتوت، الاسلام عقيدة وشريعة : ١٥٩.
٢ ــ الإمام البخاري ، الجامع الصحيح : ٣/٧ .
٣ ــ نفسه : ٩/٧ .

وليس معنى التركيز على ذوات الدين وذوي الدين في هذه النصوص وأمثالها التبغيض في جانب الجمال والمال ونحوهما، وإنما هو التأصيل للإختيار، بحيث تكون النظرة أولا وبالذات إلى التناسق مع استمرار الحياة الزوجية واستقرارها، ولا يكفل ذلك إلا الدين والخلق اللذان يجب أن يكونا متبوعين لا تابعين ولا مهدرين. فإذا كان الجمال أو المال أو نحوهما تابعا ولاحقا فإن ذلك لا يأباه الإسلام ، بيد أنه حظ التابع اللاحق، وليس حظ الأصيل الذي يجب أن يكون مدار الاعتبار والتركيز[1] .

وإذا تم تعرف أحد الطرفين على صاحبه من هذه الجهات، وأطمأنت النفوس إلى حسن الأخلاق الذي هو أساس حسن المعاملة، ونمو الرابطة وازدهارها، فإن الرسول يوصي بعد ذلك بخطوة ثانية هي خطوة الخطبة، خطوة الاختيار عن طريق الحس، مشاهدة واستماعا: يرى وجهها ويديها، ويستمع الى حديثها، فعن أبي هريرة انه قال : « كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج إمرأة من الأنصار، فقال له رسول الله : أنظرت إليها ؟ قال : لا، قال : فاذهب فانظر إليها ، فإن في أعين الأنصار شيئا »[2] .

ويذكر النووي في شرحه لهذا الحديث : أنه فيه استحباب النظر إلى وجه من يريد تزوجها وهو مذهبنا (أي مذهب النووي)، ومذهب مالك، وأبي حنيفة وسائر الكوفيين، وجماهير العلماء، وحكى عن القاضي كراهيته، وهذا ــ فيما يذكر النووي ــ خطأ مخالف لصريح الحديث، ومخالف لإجماع الأمة على جواز النظر للحاجة عند البيع والشراء ونحوها، ثم انه إنما يُباح له النظر إلى وجهها وكفيها فقط لأنهما ليسا بعورة .

ولم يكتف الرسول ﷺ في وسائل تكوين وبناء الأسرة والحياة الزوجية على التعرف والإختيار السابقين، وإنما أوجب بعد ذلك تمام الرضا من الطرفين وجعله شرطاً في صحة العقد، فقد قال ﷺ : « لا تنكح الأيم [3] حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن »[4] .

وعن خنساء بنت خدام الأنصارية أن أباها زوجها وهي ثيب، فكرهت ذلك، فأتت رسول الله فرد نكاحه[5] . وفي حالة مماثلة، زوجت بكر بغير رضاها، رد العقد، ولم يصححه إلا رضاها، فقد ذكرت السيدة عائشة ان فتاة قالت ــ يعني للنبي ﷺ ــ إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته [6] ،

---

١ ــ يوسف عبد الهادي الشال، الاسلام وبناء المجتمع الفاضل : ١٥٦ .
٢ ــ الامام مسلم، الجامع الصحيح : ٩/٢١٠ .
٣ ــ الأيّم : العزب ، رجلا كان أم امرأة، تزوج من قبل أو لم يتزوج.
٤ ــ الامام البخاري ، صحيح مسلم : ٧/٢٣ .
٥ ــ نفسه .
٦ ــ يقال رفع من خسيسته، إذا فعل فعلا يكون فيه رفعته .

وأنا كارهة، فأرسل النبي ﷺ إلى أبيها فجعل الأمر إليها، فقالت : « يا رسول الله : إني قد أجزت ما صنع أبي، ولكني أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء » [1] .

العلاقة الزوجية : وطلب الرسول من الزوج أن يحسن إلى زوجته، وطلب من الزوجة أن تحسن إلى زوجها، وجاءت وصاياه الكثيرة القوية مؤكدة لما طلبه القرآن من حسن المعاشرة بينهما، وكان من الكلمات التي سجلها النطق النبوي في جو المسلمين ، والنبي على عتبة المقابلة لربه : « استوصوا بالنساء خيرا ». وكان منها : « لا يجلد أحدكم إمرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم »[2] ، وكان منها : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة إن أمرها اطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن اقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في ماله وعرضه » [3] .

وفي السنّة العملية نماذج رفيعة تجسد هذه المعاني، فقد روى أنه ﷺ كان يسابق عائشة في العدو. وفي الخبر انه ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه .

وقالت عائشة رضي الله عنها : « سمعت أصوات أُناس من الحبشة وغيرهم يلعبون في يوم عاشوراء، فقال لي رسول الله ﷺ : أتحبين أن نرى لعبهم ؟ فقلت : نعم. فأرسل إليهم فجاءوا، وقام رسول الله ﷺ بين البابين فوضع كفه على الباب، ومد يده ووضعت ذقني على يده، وجعلوا يلعبون، وانظر، وجعل رسول الله يقول : حسبك ، وأقول : اسكت، مرتين أو ثلاثا، ثم قال : يا عائشة، حسبك، فقلت نعم، فأشار إليهم فانصرفوا، فقال رسول الله ﷺ : أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلقا وألطفهم بأهله » .

ولا شك في أن قيام الحياة الزوجية على الشك والريبة من شأنه أن يفسد جو الأسرة ويهددها بالتفكك والانهيار، ومن هنا فقد شدد الرسول الكريم على عدم التعريض بالزوجة، فعن أبي هريرة ان الرسول ﷺ جاءه أعرابي فقال: « يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، وإني أنكرته، فقال له النبي : هل لك من إبل ؟ قال : نعم. قال : ما ألوانها؟ قال حُمر. قال : (هل) فيها من أورق [4] قال : نعم، قال : فأنّى كان ذلك ؟ قال : أراه عرق نزعه، قال : فلعل ابنك هذا نزعه عرق » [5].

وهكذا استطاع النبي المعلم صلوات الله عليه أن يوجه الرجل إلى الفهم السليم من اقرب طريق بعد أن كاد يودي الرجل بحياته الزوجية [6].

---

١ ــ إبراهيم اللبان، الأسرة الاسلامية، : ٨ .
٢ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٤٢/٧ .
٣ ــ نفسه .
٤ ــ أي سواد غير صاف .
٥ ــ الامام البخاري، الجامع الصحيح : ٢١٥/٨ .
٦ ــ أحمد عمر هاشم، المنهج النبوي في تعليم المسلمين : ٤٠ .

تربية الأبناء : ولعل ما يلقاه الأطفال من سوء المعاملة من الأب والأم له أكبر الأثر في كثير من انحرافات الشخصية وأمراضها مما اثبتته الدراسات النفسية التجريبية في كثير من البلدان، فليرجع إليها من شاء. لذا فقد حظيت هذه المسألة باهتمام الرسول، فنهى مثلا عن التمييز في معاملة الأولاد ، وهو الأمر الذي نشاهده مع الأسف لدى بعض مما قد يبذر بينهم بذور التباغض والتحاسد والحقد. فعن النعمان ابن بشير قال : إن أباه أتى به رسول الله فقال : إني نحلت ابني [1] هذا غلاما كان لى. فقال رسول الله ﷺ : « أكل ولدك نحلته مثل هذا ؟ فقال : لا، فقال رسول الله: فأرجعه » [2].

وفي الحديث عن أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء [3]. » فمن حق الأطفال حينئذ أن يغرس في نفوسهم الإيمان بالله عز وجل، خالق الكون وبارئه بكل طريق يناسبهم. مثل الأقصوصة الخفيفة، والكلمة الحانية، واللفتة إلى آثار صنع الله في الكون والمخلوقات، وحفزهم وتشجيعهم على التدريب على الصلاة، ففي الحديث، « مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، وإذا بلغ عشر سنين، فاضربوه عليها » [4]. وقراءة القرآن معهم بطريقة ترغبهم لا بطريقة تملهم وتثقل كاهلهم ، كل هذا من واجب الأبوين والمدرسة ... ثم تخير الأناشيد الجميلة والوصايا الخفيفة، كوصية الرسول الكريم لابن عباس وهو غلام ... وكذلك الأحداث الخفيفة من سيرة الرسول وأصحابه والسلف الصالح « كنا نعلم أولادنا مغازي رسول الله كما نعلمهم السورة من القرآن ». وكذلك القصص العلمي والأدبي العام . والطفل في هذه السن عنده من الإقبال والطواعية ما يجعله مستعدا للتكوين، وتبا وبوارا للذين يهملون أبناءهم ويسلمونهم لأيد غير أمينة، أو يتشاغلون عنهم بالشواغل العارضة وكذلك بالنزوات الفارغة [5].

وحث الرسول على إشاعة الدفء والحنان والرقة والرفق في معاملة الأطفال ، فعن أسامة بن زيد، أن رسول الله ﷺ كان يأخذه فيقعده على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما ويقول : (اللّهم ارحمهما، فإني ارحمهما) [6] . وعن أبي قتادة عن النبي قال : « إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطوّل فيها ، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه » [7]، وعندما قال الأقرع

---

١ — أي وهبت .
٢ — الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٦٥/١١ .
٣ — متفق عليه .
٤ — رواه أبو داود والترمذي، وقال هذا حديث حسن .
٥ — أحمد محمد العسال، الإسلام وبناء المجتمع : ٢٠٥ .
٦ — الامام البخاري، الجامع الصحيح : ١٠/٨ .
٧ — نفسه : ١٨١/١ .

للرسول أن له عشرة من الولد، ما قبّل منهم أحدا، نظر إليه الرسول ﷺ وقال : « من لا يرحم لا يُرحم » [١].

وعن عروة بن الزبير أن عائشة حدثته قالت : « جاءتني إمرأة معها ابنتان تسألني، فلم تجد عندي غير تمرة واحدة ، فأعطيتها، فقسمتها بين ابنتيها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ فحدثته، فقال : من بلى من هذه البنات شيئاً، فأحسن إليهن كُن له ستراً من النار » [٢].

وتنصيص الرسول الكريم على البنات، توجيه تربوي من المصلح الأكبر صلوات الله عليه وسلامه، ويجب ان تفقهه المرأة في مجتمعنا المسلم بخاصة، والمجتمع الإنساني بعامة ، لتدرك نعمة الإسلام عليها وما أسدى إليها من فضل يجب أن يقابل بالشكران. فقد كانت البنت في أرض الله الواسعة تقطع رحلة حياتها في زاوية من زوايا المجتمع البشري طالت تلك الحياة أو قصرت . وعواطف الوالدين تتجه دائما إلى البنين وحدهم ولا ينال البنات إلا ما فضل عن هؤلاء البنين ، فكانت هذه اللفتة الكريمة الهادفة في التوجيه التربوي [٣].

وجعل الرسول ما ينفقه الإنسان على أولاده من اموال في مقدمة أوجه الإنفاق، بل أفضلها وأحقها، فقال : «افضل دينار ينفقه الرجل، دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على اصحابه في سبيل الله » [٤].

وأوجبت السنّة حسن اختيار الاسم، وهذا من مسؤولية الوالدين، لما ورد في الأحاديث الشريفة الكثيرة، قال رسول الله ﷺ « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلمه الكتابة، ويزوجه إذا بلغ » [٥] وعن ابن عباس أنه قال: « قالوا يا رسول الله، قد علمنا ما حق الوالد، فما حق الولد ؟ قال أن يُحسن اسمه ويحسن أدبه » [٦]، وكان رسول الله يغير الأسماء القبيحة التي كانت في الجاهلية إلى اسماء حسنة. وإن اختيار الاسم الحسن علامة بارزة في التربية غير المباشرة، لأن كل شخص له من اسمه نصيب إن خيراً فخير وإن شراً فشر، بالإضافة إلى الأمور النفسية التي بينها علماء التربية عند المناداة باسم حسن أو قبيح ، وأثر ذلك على نفسية الطفل وعلاقته مع زملائه وأفراد مجتمعه [٧].

---

١ ــ الامام البخاري : ٨/٨ .
٢ ــ نفسه .
٣ ــ يوسف الشال، الاسلام وبناء المجتمع الفاضل : ١٩١ .
٤ ــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٨١/٧ .
٥ ــ أخرجه أبو نعيم .
٦ ــ أخرجه البيهقي .
٧ ــ محمد مصطفى الزحيلي : منهج الإسلام في تربية الآباء : ١٠٠ .

وأوجب ﷺ على الآباء ان يجنبوا ابناءهم اماكن اللهو والباطل، ويحذروهم من ارتياد مجالس الفسق والفجور، فقد روى البخاري في تأريخه عن النبي، قال : «ما نحل والد ولدا افضل من ادب حسن » وروى الترمذي والطبراني عن جابر بن سمرة، قال : قال رسول الله ﷺ : « لان يؤدب احدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين » .

العلاقات الاسرية : والمصطلح المتداول لهذه العلاقات في الأدب النبوي هو (صلة الرحم)، والرحم كل من بينك وبينه قرابة. فالرحم هي الصلة الوثيقة التي تجمع أشتات الأقارب كما يجمع الخيط الحبات المتناثرة فيجعل منها عقدا نظيما، كذلك فإنها تجعل من الأسرة جبهة قوية تصون المجتمع، وتهيىء مناخاً عائلياً يساعد على حسن تكوين الشخصية. وبر المرء بأهله له في ميزان الأعمال أجران ، فهو صدقة وصلة، يقول ﷺ : « الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان ، صدقة وصلة » [١]. كذلك يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه : « والذي بعثني بالحق، لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون الى صلته ويصرفها إلى غيرهم ، والذي نفسي بيده، لا ينظر الله إليه يوم القيامة » [٢].

وصلة الرحم ضرورة إجتماعية تتطلبها الحياة على هذه الأرض، فإن أعباء الدنيا ثقال، والإنسان وحده لا قدرة له على مواجهتها، فلا غنى للمرء عن رحمه وذوي قرباه، يكونون معه على الشدائد والملمات [٣]. ولهذا فرض الرسول ﷺ على المسلم أن يصل رحمه وإن قطعوا، وأن يحسن إليهم وإن اساءوا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال : « يا رسول الله، ان لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عليهم ويجهلون علي. قال : إن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الملّ [٤]، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » [٥].

وكما أوجب الرسول على الآباء والأمهات حسن معاملة أولادهم، أوجب على الأولاد أيضا بر والديهم ، وبذلك يشيع الحب والألفة بينهم ، فتزداد الأسرة قوة ويزداد مناخها صلة، فقد سئل النبي ﷺ « أي العمل أحب إلى الله ؟، قال : الصلاة على وقتها. قال : ثم أي ؟ قال : ثم بر الوالدين، قال ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » [٦] وجعل الرسول العظيم صلة الرحم السبيل الرئيس كي يبسط الله للرجل في رزقه، فقال في رواية عن أبي هريرة: « من سره أن يبسط له في رزقه، وأن ينسأ له في أثره ، فليصل رحمه » [٧] . بل لقد جعل الإنفاق على الوالدين ورعايتهما صورة من صور الجهاد في سبيل

---

١ ــ أخرجه النسائي والترمذي وحسنه الحاكم وقال : صحيح الاسناد .
٢ ــ أخرجه الطبراني .
٣ ــ أحمد عبد الواحد البسيوني : صلة الرحم : ١٦ .
٤ ــ الرماد الحار الذي يحمى ليدقق فيه الخبز،وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم والألم .
٥ ــ أخرجه مسلم .
٦ ــ الامام البخاري، الجامع الصحيح : ٢/٨ .
٧ ــ نفسه : ٨/٦ .

الله ، فعن عبد الله بن عمر قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال : أحي والدك ؟ قال : نعم، قال : ففيهما فجاهد » [1].

أما الأم بالذات، فقد حظيت بنصيب أكبر من ضرورة الرعاية والحب والاهتمام، لما هو معروف عن دورها في حمل الطفل تسعة أشهر ورعايته في سنواته الأولى ، تلك السنوات التي تتكون فيها المعالم الرئيسة للشخصية، ويتشرب خلالها الطفل المقومات الأساسية في الثقافة القائمة، فقد « جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، من أحق بحسن صحابتي ؟ قال : أمك. قال : ثم من ؟ قال : أمك ،قال: ثم من؟ قال : أمك، قال : ثم من؟ قال : ثم أبوك » [2] . وجاء رجل الى رسول الله يشكو إليه سوء خلق أمه ، فقال له الرسول : « لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر ؟ فأعاد الرجل قوله إنها سيئة الخلق، فقال الرسول : لم تكن سيئة الخلق حين أرضعتك حولين ؟ فأعاد الرجل قوله مرة ثالثة : إنها سيئة الخلق، فقال له الرسول: لم تكن سيئة الخلق حين أسهرت ليلها ، وأظمأت نهارها من أجلك ؟ فقال الرجل: لقد جازيتها، فقال الرسول : ما جزيتها ولو بطلقة واحدة من طلقات الولادة » .

٢ ــ المعرفة طريق السواء :

إن من أجلّ ما يتميز به الإسلام ، حفاوته بالعقل، وتقديره لحركته، وآية ذلك أنه فتح آفاق الوجود رحيبة يحلق فيها الفكر ما شاء له التحليق، ويجوب جنباتها بكل حرية،يتأمل ويبحث ويوفق وينسق، يستخرج الخبء ويستكنه المجهول دون قيد يكبله أو غل يرهقه [3].

وكان ذلك من الإسلام متلائما كل التلاؤم مع طبيعته، إذ هو الحق، ومن عند الله الحق، وإنما ينصع على الجدل، ويتألق على صراط البراهين الجادة التي تنشر الحقيقة وتتوخاها .

ومن هنا كان للعقل قيمته في ميزان الإسلام ، فهو لديه التعبير الواقعي عن الرشد، وأيضا الأهلية لتحمل المسؤوليات والتبعات والتكاليف ، كما ان له قيمته في حركة الحضارات إنشاء أو إضافة وتطويراً، فقد قيل في الأدب النبوي أن لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدرعقله تكون عبادته » [4] وهذا يبين ما للعقل من أهمية في حياة المؤمن وعبادته، فهو يعني ان لكل شيء دعامة يقوم عليها كيانه وينبني عليها إيمانه ،وهي العقل. وليس هناك تصور لمكان العقل وارتباطه الوثيق بالإيمان والعبادة أبلغ مما يصوره هذا المبدأ .

---

١ ــ الامام مسلم، الجامع الصحيح : ١٠٤/١٦ .
٢ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٢/٨ .
٣ ــ محمد عبد الرحمن بيصار، مقدمة كتاب علي عبد العظيم ، فلسفة المعرفة في القرآن الكريم : ٣ .
٤ ــ محمد كامل حته، القيم الدينية والمجتمع : ٦١ .

والرسول الكريم اتساقا مع فلسفة الإسلام إذ ينزل العقل هذه المنزلة إنما يضع يده على العمود الفقري للشخصية السوية، وما يجعل الإنسان إنسانا.

والأمر بالطبع لا يقف عند حد الإشادة بالعقل والتنويه به ، وإنما يتعداه إلى أهمية تنميته وتطويره وتغذيته، وهذا لا يتم إلا بالمعرفة والسعي في طلبها بصفة مستمرة طالما استمرت حياة الإنسان. وقديما كان سقراط يلح على أن الإنسان هو الذي يتوافر له القدر الكافي من المعرفة، ذلك لتأكيده على أن الإنسان لا يمكن أن يعمل بالخير إلا إذا عرف ماهية الخير، أي عرف الإدراك العقلي للخير. فالعمل الأخلاقي مؤسس على المعرفة، ويجب أن يصدر عنها، بل إن الفضيلة والعلم شيء واحد،فيستحيل أن تعمل الخير ولا تعرفه، فيكفي في نظره أن يعلم الإنسان ما الفضيلة حتى يكون بمنجاة من فعل الرذيلة، وكل عمل للشر، إنما يصدر عن الجهل بالفضيلة، لأن الإنسان لا يسعه إذا عرف خيرا أن يفعل شراً [١].

وإذا كان سقراط قد غالى في مذهبه من حيث ظنه بأن العلم والمعرفة يؤديان حتما إلى السلوك السوي، إلا أن ما لا يمكن إنكاره حقا، هو أن السلوك السوي لا يمكن أن يتم بالفعل اذا لم تسبقه المعرفة، واذا لم يقم على العلم .

لذا نجد حرصا شديدا من الرسول ﷺ على حث المسلم على طلب المعرفة، فقد قال حميد بن عبد الرحمن، سمعت معاوية خطيبا يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : « من يُرد الله به خيرا يُفقهه في الدين » [٢]. وجعل المعرفة ميزة يستحق الحاصل عليها أن يغبط وأن يحسد،مما يؤكد علو شأنها ورفعة مكانتها، فقال : «لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلّمها » [٣].

ثم هو يؤكد على أن الاجتماع للتدارس والمذاكرة سبيل من السبل الموصلة إلى الجنة والسعادة الدنيوية والأخروية، فيقول : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله به طريقا الى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » [٤].

ودل الرسول الكريم مرات عديدة على أهمية (طريقة) بث المعرفة ووسيلة التعليم، فكان يقول : « يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا » [٥]. وحذر الرسول من الإثقال على المتعلمين على أساس أن للمتعلم طاقة معينة لا ينبغي أن نتعداها،فيؤدي به ذلك إلى الملل والتعب مما يقلل من جدوى التعليم،

---

١ ــ أحمد أمين وآخرون، قصة الفلسفة اليونانية : ١٢٧ .
٢ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٢٧/١ .
٣ ــ نفسه : ٢٨ .
٤ ــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٢١/١٧ .
٥ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٢٧/١ .

فكان عبد الله بن مسعود يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم. قال : أما انه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم واني اتخولكم بالموعظة، كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا .[1].

وكان يطرح المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وانها مثل المسلم، فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ قال هي النخلة »[2] . وقد استخدم التكرار حتى لا يفوت على السامع كلمة مما قال، وحتى يتيح الفرصة لمن لا يفهم من المرة الأولى ان يفهم من الثانية أو الثالثة، فعن أنس عن النبي ﷺ أنه كان اذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم، سلم عليهم ثلاثا »[3].

ومن شدة حرصه ﷺ على إشاعة المعرفة ، ألمح إلى أنه في الزمن الذي تشح فيه ويسود الجهل، فان ذلك يؤذن بانتهاء الحياة الدنيا، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤساء جهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا ».[4] وقال أيضاً : « إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويظهر الزنا »[5].

ويلفت نظرنا حقا ذلك التركيز النبوي على أن الأمور اذا ما تركت في أيدي غير المختصين فإن ذلك نذير بسوء الحال، كما يدلنا على هذا الحديث السابق. ويدل على المعنى نفسه أيضا ما يرويه أبو هريرة، قال: « بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله يحدث، فقال بعض القوم : سمع ما قال، فكره ما قال، وقال بعضهم، بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه، قال : أين السائل عن الساعة؟ قال : أنا يا رسول الله. قال : فإذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة. قال : كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة »[6].

وليس الناس سواء في تلقي المعرفة والاستفادة منها، فالقدرات مختلفة، والاستعدادات متنوعة. لذا نجد الرسول ﷺ يقول : « مثل ما بعثني به الله عز وجل من الهدي كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير،وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها

---

١ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ١/٢٧.
٢ ــ نفسه : ١/٢٣ ــ ٢٤ .
٣ ــ نفسه : ١/٣٥ .
٤ ــ نفسه : ١/٣٦ .
٥ ــ نفسه : ١/٣٠ .
٦ ــ نفسه : ١/٢٣ .

الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي ارسلت به » [1].

ولأن القرآن الكريم هو دستور الحياة الإسلامية من حيث العقائد والأخلاقيات والتشريع ، وبه الصورة المُثلى للشخصية المسلمة السوية، كان ضروريا أن يكون المصدر الأساسي للمعرفة والمرشد الرئيس للسلوك، ومن ثم كان طبيعياً أن يحث الرسول الكريم المسلم على مدارسته ومذاكرته وحسن الاستفادة منه بالعمل بما فيه، والاهتداء به. فعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر » [2].

بل لقد اعتبر الرسول الكريم حفظ المسلم لبعض اي الذكر الحكيم كمثل من يمتلك ثروة مادية يمكن التعامل بها. فقد أراد رجل أن يتزوج امرأة ولم يكن له شيء من مال، فجاء الرسول فسأله : « ماذا معك من القرآن ؟ فقال : معي سورة كذا وسورة كذا، عددّها. فقال : تقرؤهن عن ظهر قلب ؟ قال:نعم، قال : إذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن » [3] .

والاكتفاء بتحصيل المعرفة إذا كان له من قيمة إلا أن قيمته محصورة في شخصية العارف والدارس، ولكن الإسلام يريد من كل مسلم أن يتعدى بما يحصل عليه من النفع إلى الغير كذلك. ومن ثم يأتي التحريض دائما على «التعليم» بجانب «التعلم»، فقد حدث حميد بن هلال قال ، قال أبو رفاعة « انتهيت الى النبي ﷺ وهو يخطب، فقال، قلت : يا رسول الله رجل غريب يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، قال : فأقبل عليَّ رسول الله وترك خطبته حتى انتهى إلي فاتى بكرسي حسبت قوائمه حديدا، قال: فقعد عليه رسول الله وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته، فأتم آخرها » [4].

لكن تبقى بعد ذلك علامة استفهام عندما نقرأ حديثاً للرسول ﷺ فيما يُروى عن ابن عمر أنه قال: « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا هكذا، يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين » [5] .

وجاء في شرح ابن حجر العسقلاني للحديث أن المراد بالأمية النسب الى أمة العرب لأنها لا تكتب، أو النسب إلى الأم، أي أنهم على أصل ولادة أمهم، أو لأن هذه صفتها غالباً، أو النسب إلى أم القرى. وقوله لا نكتب ولا نحسب، تفسير لكونهم كذلك. وقيل للعرب أميون لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة.

---

١ ــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٤٦/١٥ .
٢ ــ نفسه : ٨٤/٦ .
٣ ــ نفسه : ٩/٧ .
٤ ــ نفسه : ١٦٥/٦ .
٥ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٣٥/٣ .

والمراد بالحساب هنا حساب النجوم ومعرفة سيرها، ولم يكونوا يعرفون من ذلك إلا النزر اليسير، فعلق رسول الله الحكم بالصوم وغيره بالرؤية لرفع الحرج عنهم في معاناة حساب سير النجوم [1] .

وقد فند الدكتور أحمد الحوفي العلاقة بين الأمية وجهل القراءة والكتابة في مناقشة بعض اللغويين وبعض المفسرين، ورد على دعوى النسب إلى أمة العرب أو إلى الأم أو إلى أم القرى [2] .

فما معنى الأمية هنا ؟ الذي نرجحه أن النبي لم يقصد بالأمة هنا الأمة الإسلامية كلها حاضرها في عصره ومستقبلها من بعده، لأن في الفرس والروم وغيرهم ممن أسلموا كثيرا كانوا يكتبون ويقرأون، بل قصد بالأمة، العرب، فما المراد من وصف العرب بالأمية ؟ إن دراستنا لبعض آيات القران التي ورد فيها هذا اللفظ يجعلنا نُرجح أن العرب أميون، أي أمة أخرى غير اليهود ليس لهم كتاب سماوي قبل نزول القرآن الكريم. بقي بعد هذا أن العرب لا يكتبون ولا يحسبون فما معنى ذلك ؟ .

معناه أن العرب لم يكونوا يجرون على نظام فلكي في حساب الأيام والشهور والأعوام وكتابتها وتدوينها، بل كانوا يعتمدون على رؤية القمر، ويحسبون الشهر ــ كما بين الحديث الشريف ــ بإشارة الأصابع ، تارة تسعة وعشرين يوما، وتارة ثلاثين يوما [3] .

٣ ــ التربية الخلقية :

تعتبر التربية ــ خصوصا في صورتها النظامية، عملية خلقية تقوم، من أولها إلى آخرها ، وعلى شتى مستوياتها، على قيم خلقية ــ سواء وعى المشتغلون بالتعليم هذه القيم أو لم يعوا، وسواء عبرت هذه القيم عن نفسها بصورة واضحة أو صورة ضمنية [4]. والمدرسة ــ بحكم تاريخها في المجتمع وبحكم وظيفتها فيه وعلاقتها بواقع الثقافي ــ مؤسسة خلقية بالمقدار نفسه ، فالتعليم دائما من أجل المجتمع،

---

١ ــ ابن حجر، فتح الباري : ٢٨/٥، وذكر الزمخشري أن النبي ﷺ أمي نسبة إلى أمة العرب حين كانوا لا يحسنون الخط، ويخط غيرهم من سائر الأمم، ثم بقي الاسم، وان استفادوا الكتابة فيما بعد. وقيل : نسب إلى الأم أي كما ولدته أمه. الزمخشري ، الفائق في غريب الحديث : ٢٥١ .

٢ ــ أحمد الحوفي، الأمي والأميون ــ ما معنى كلمة أمي في القرآن الكريم : ٧٦ .

٣ ــ نفسه : ٧٦.

٤ ــ محمد الهادي عفيفي، في أصول التربية، الأصول الفلسفية : ٣٠٤ .

وينفعل بما يختاره من قيم، وبما يتخذ من قرارات، وبما يسوده من معتقدات. والمجتمع يتوسل بالتعليم في الوقت نفسه لتحقيق فلسفته وآماله ، بل إن التعليم لا بد من أن يعبر عن خلقية معينة، حتى في حالة عزلته، واتجاهه إلى تلقين التلاميذ حقائق مجردة بصرف النظر عن أحداث الزمان والمكان، وعن قيمتها في حياة الشباب والناشئين.

ولقد دل تاريخ الرسالات الإلهية في جميع مراحلها، على أن السعادة التي جعلت العقائد سبيلا إليها، لا بد في الحصول عليها من حسن الخلق [1] ، وأن الإيمان الذي يرجع فقط إلى مجرد العلم بوحدانية الله، والعبادة التي ترجع فقط إلى الصور والأشكال، وأن النظم التي ترجع فقط إلى مواد القوانين والفقه المحفوظ في الصدور، وأن المتعة بالحياة التي ترجع فقط إلى إصابة لذائذها، وأن نظرة الإنسان إلى الكون التي ترجع فقط إلى مظاهره العامة ــ دل تاريخ تلك الرسالات وارشاداتها ــ على أن انقطاع هذه الأمور في جوهرها عن الاخلاق هكذا، أو انقطاع الأخلاق عنها، مما يهدم الشخصية ويزعزع أركانها. والخلق هو الصمام لجميع جوانب الشخصية. ومن هنا كانت عناية الإسلام به عناية تفوق كل عناية. ولقد وصلت هذه العناية عند الرسول محمد ﷺ إلى ان جعل الخلق متعلق برسالته فقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ».

وقد كثرت توصيات الرسول ﷺ في هذا الجانب حتى قال:«اثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق ». وحتى جاءه رجل ذات يوم ووقف بين يديه وسأله : ما الدين يا رسول الله ؟ فقال : حُسن الخلق. ثم جاءه من الشمال، ومن الخلف وسأله السؤال، وكان الجواب هو الجواب .

ولأن الإيمان الحقيقي هو الذي يتجسد في أخلاق فعلية، أكد الرسول صلوات الله عليه وسلامه فيما يروي عنه أبو هريرة : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » [2] . ذلك أن من شأن الإيمان أن ينهى الإنسان عن مثل هذه الأمور، فهو إذا فعلها لا يكون مؤمنا حقيقة.

بل إن الذي يؤدي طقوس الدين وشعائره، ويظل على الرغم من ذلك سيء الخلق، إنما هو مرفوض في الإسلام. لذا نجد الرسول ﷺ فيما يرويه أيضاً أبو هريرة، يسأل جمعا من المسلمين: «أتدرون من المفلس؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: « المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل ان يقضي ما عليه، اخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار » [3] .

---

١ ــ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة : ٤٨٣ .
٢ ــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٢/٤١ــ٤٢ .
٣ ــ نفسه : ١٦/١٣٦ .

ولا يترك الرسول الكريم القضية على هذه الدرجة من العمومية. إنما يضرب الأمثلة المتكررة والمحسوسة لبعض السمات المرغوب فيها، وبعض السمات المكروهة، فمن ذلك :

ـ **الصبر في مواجهة الشدائد** : فقد سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ، سمعت رسول الله يقول : « ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها ، الا اجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها. فلما توفي أبو سلمة، قلت كما أمرني رسول الله، فخلف الله لي خيرامنه ، رسول الله » [1].

وليس المراد هنا بالطبع الاستسلام للمصائب والشدائد، وإنما هو ما يَقصد إليه علماء النفس بـ « الثبات الإنفعالي » بحيث لا يتهور الإنسان ويهتز، وبالتالي يكون أكثر عرضة لخطأ التقدير وسوء الحكم ، ولذلك نجده يقول في حديث آخر : « ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » [2].

ـ **النميمة** : وفي ذلك روى حُذيفة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنةنمّام » [3].

ـ **الغدر** : وهو مثل النميمة من السمات الخلقية غير المرغوب فيها، ولذلك قال الرسول : « لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال هذا غدرة فلان » [4] .

ـ **الحياء** : وهو من الصفات المرغوب فيها، فعن أبي هريرة، عن النبي أنه قال : « الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الايمان » [5] .

وللحياء طبعاً حدوده التي ينبغي الا نتعداها، وإلا أصبح مرضاً وعائقاً للإنسان عن مواجهة مشكلات الحياة وجوانبها المختلفة .

ـ **الغيبة** : يقول الرسول الكريم : « أتدرون ما الغيبة، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره، قيل : أفلا رأيت إن كان في أخي ما أقول، قال : ان كان فيه ما تقول فقد غبته، وان لم يكن فيه، فقد بهته »

ولا يعني هذا أيضا السكوت على ما قد نراه في الآخرين من سيء الأعمال،وإنما لا بد من المصارحة والمكاشفة والمواجهة، وذلك بعد التأكد والتيقن.

ـ **غض البصر** : فعن أبي سعيد الخُدري، أن رسول الله قال : « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا

---

١ ـ الامام مسلم ، صحيح مسلم : ٦/٢٢١ .
٢ ـ الامام البخاري، الجامع الصحيح : ٨/٣٤ .
٣ ـ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٢/١١٢ .
٤ ـ نفسه : ١٢/٤٣ .
٥ ـ نفسه : ٢/٣ .

المرأة الى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في لباس واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد » (١) .

ـ **الصدق والكذب** : فعن عبد الله بن مسعود، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الصدق بر، وإن البر يهدي الى الجنة، وإن العبد ليتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقا. وان الكذب فجور، وان الفجور يهدي الى النار، وان العبد ليتحرى الكذب حتى يكتب كذابا » (٢) .

ـ **النفـاق** : فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من علامات المنافق ثلاثة، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان » (٣). وكذلك قوله عليه السلام « تجد من شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين ، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه » (٤) .

ـ **الرفق بالحيوان** : فعن الرسول قال : « عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » (٥).

وهناك أحاديث جامعة لا تقتصر على سمة واحدة، وإنما تجمع بعض السمات التي يجب على المسلم أن يحذرها، او التي يجب أن يتحلى بها، وذلك مثلما نرى فيما يرويه أنس، إذ قال إن النبي ﷺ كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضَلَع الدين وغلبة الرجال » (٦) .

وكذلك فيما يرويه أبو هريرة من أن الرسول قال : « إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث،ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله اخوانا » (٧) .

والرسولُ لا يعتد بمجرد السلوك الملاحظ، وإنما يؤكد أن المحاسبة سوف تكون على «النية» و«القصد»، وذلك سبيل لا قدرة على معرفته إلا الله سبحانه وتعالى، ولذلك نجد الاهتمام به في الدين على

---

١ ـ الامام مسلم، الجامع الصحيح : ٣٠/٤.
٢ ـ نفسه : ١٦٠/١٦
٣ ـ نفسه : ٤٧/٢ .
٤ ـ الامام البخاري، الجامع الصحيح : ٢١/٨.
٥ ـ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٢٤٠/١٤.
٦ ـ الامام البخاري، الجامع الصحيح : ٩٨/٨.
٧ ـ نفسه : ٢٣/٨.

عكس كثير من النظريات السيكولوجية المعاصرة التي تحاول أن تحصر جهدها في المظاهر السلوكية المرئية، فعن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ، قال : « إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

ولا شك في أن المتسم بمثل هذه الصفات المرغوب فيها ، والذي ينأى عن العكس لا يقتصر فضله على نفسه، وإنما يصيب الآخرين، بالضبط كمثل حامل الرائحة الطيبة على قدر ما يرتاح، يرتح من حوله مما يجعلهم يقبلون عليه، ويهتمون بتوثيق الروابط الشخصية والاجتماعية معه، فعن النبي ﷺ أنه قال : « مثل الجليس الصالح والجليس السوي، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما ان يجذبك ويعطيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، واما أن تجد منه ريحا خبيثة »[2].

٤ ــ التربية الجسمية :

ليس من شك في أن سعادة الإنسان معقودة بقوة جسمه وروحه،لأن الحياة مليئة بالآلام والآمال، ولا بد له من اقتحام الآلام والحصول على الآمال، وضعيف الروح يقعد به ضعف الروح عن مصابرة الآلام،كما يقعد به عن الوصول إلى الآمال، وكذلك ضعيف الجسم تخور قواه الجسمية عن مواصلة الحركة. وليس من ريب أيضا ان للرياضة البدنية أثراً عظيما في قوة الجسم ومناعته، ومن هنا كانت عناية الرسول العظيم بها، والحث على ممارستها، كما يتضح لنا من الأمثلة التالية »[3].

أ ــ **الرمي** : لم تخل الارشادات الواردة في أقوال الرسول ﷺ من لفت الأنظار إلى جملة من أنواع الرياضة البدنية ومنها « الرمي »، وبه فسر النبي القوة المأمور بإعدادها في قوله تعالى ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾[4]. فقال : « ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي »[5]، وكرر النبي عبارته للترغيب في تعلم الرمي وإعداد آلاته . وقد قال العلماء في شرح هذا الحديث ان فيه دليلا على مشروعية الاشتغال بتعليم آلات الجهاد والتمرن فيها والعناية باعدادها،ليتمرن الإنسان بذلك على الجهاد، ويتدرب فيه ، ويروض أعضاءه. عن سلمة بن الأكوع قال : « مرّ النبي ﷺ على نفر من (أسلم) ينتضلون، فقال النبي : ارموا بني اسماعيل، فإن أباكم كان راميا، وإنا من بني فلان. قال، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم،فقال

---

١ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ١/٧١.
٢ ــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ١٦/١٨٧.
٣ ــ محمود شلتوت، من توجيهات الاسلام : ١٥٧.
٤ ــ الأنفال : ٦٠ .
٥ ــ الامام مسلم، الجامع الصحيح : ١٣/٦٤.

رسول الله : ما لكم لا ترمون ؟ قالوا : كيف نرمي وأنت منهم ؟ قال النبي ﷺ : أرموا فأنا معكم كلكم » [1]. ومعنى ينتضلون، يترامون بالنبال، ولا يكون الرسول معهم ــ وهي معية رضاً ومشاركة في النية والقصد ــ إلا والذي يعملون فيه خير وصلاح، يقره الدين ويحبب فيه » [2].

ب ــ **السباحة** : وروي أيضا أنه ﷺ قال : « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي ». فذكر نوعين آخرين مع الرمي : الكتابة والسباحة . والكتابة مع فائدتها الأصلية ــ وهي تقييد العلوم والمعارف، وتدوين ما يحتاج إلى تدوينه ، ومحو الأمية ــ فيها رياضة موضعية في ترويض أصابع اليد وتمرينها على الحركة ، وفي ذلك ما يجعلها ذات قوة وتحمل. والسباحة مع أنها انقاذ الغرق، واصطياد ما في قاع البحر من معادن، ومع أنها مران على الجهاد البحري، هي في الوقت نفسه ترويض لأعضاء الجسم كله، وهي باطلاقها تشمل حركة الجسم في الماء والتجديف، وسائر ما عُرف من أنواعها في هذه الأيام .

ج ــ **العدو (الجري) والمصارعة** : وكما ورد في الحث على الرمي والسباحة، ورد أن النبي كان يرى أصحابه يتسابقون على الأقدام ويقرهم على ذلك. وقد ورد أنه ﷺ ــ كما أشرنا من قبل ــ قد مارس هذه اللعبة، فقد صح عن عائشة قولها : « سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، ثم سابقني فسبقني، فقال : هذه بتلك » [3].

وروي أن النبي ﷺ صارع رجلًا معروفاً بالشدة، فصرعه النبي ، فقال : عاودني في أخرى، فصرعه الرسول في الثانية، فقال : عاودني، فصرعه الرسول في الثالثة، فقال الرجل : ماذا أقول لأهلي ؟ شاة أكلها الذئب، وشاة نشزت، فماذا أقول في الثالثة ؟ فقال النبي : ما كنا لنجمع عليك أن نصرعك فنغرمك، خذ غنمك وانصرف .

د ــ **المبارزة واللعب بالحراب** : وكما ورد من أنواع الرياضة السابقة وردت أيضا المبارزة (اللعب بالحراب) أو (الشيش)، فعن أبي هريرة قال: « بينما الحبشة يلعبون عند النبي ﷺ ، دخل عمر، فأهوى إلى الحصى فحصبهم بها، فقال رسول الله ﷺ : دعهم يا عمر. وقال العلماء (اللعب بالحراب فيه تدريب للشخصية على مواقع الحروب،وكذلك الاستعداد للعدو) [4].

هـ ــ **ركوب الخيل** : وقد نوه القرآن الكريم بالخيل وذكر رباطها في اعداد القوة والجهاد، وصح أن النبي ﷺ سبق بين الخيل وأعطى السابق، وأنه كان يسابق على ناقته العضباء وكانت لا

---

١ ــ الامام البخاري، الجامع الصحيح : ١/٤٥.
٢ ــ سعيد اسماعيل علي، أصول التربية الإسلامية : ١٠٧ .
٣ ــ محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام : ١٦٠ .
٤ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٤/٤٦ .

تسبق، وقد سبقت مرة، فاشتد ذلك على المسلمين، وقالوا سبقت العضباء، فقال رسول الله : « إن حقاً على الله الا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه »، وهذا من العبر الخلقية التي يجب الانتباه إليها .

وإن أي انسان أجنبي يمر بأي بلد عربي أو إسلامي ثم يلاحظ هذا الإهمال الظاهر لجانب النظافة في الشوارع والملابس والبيوت، فهو حتما سوف يظلم الإسلام ويتصور أن هذه القذارة ترجع إلى شيء في تعاليم ديننا ... ولو تحرى الدقة والعلم، لاكتشف أن إهمال النظافة في العالم الإسلامي راجع إلى التخلف العام ، وإلى بعدنا عن الإسلام وعدم التمسك بتعاليمه وأهدافه [1] . فلم يحدث في تاريخ الإنسانية كلها أن اهتم أي دين سماوي أو حتى نظام علمي بخلق البيئة المحلية المثالية وجعلها جزءا لا يتجزأ من تعاليمه الرئيسة كما اهتم الإسلام بذلك .

وقد أمرنا الرسول ﷺ بقص الأظافر ــ مثلا ــ، وفي ذلك إشارة واضحة، لا تحتاج الى مزيد من التفسير، الى الميكروبات التي تعيش تحت الأظافر الطويلة .

وحديث آخر أكثر دلالة على الميكروب، إذ يقول الرسول ﷺ : « اذا توضأ العبد فمضمض، خرجت الخطايا من فيه ، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه ... فاذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه، حتى يخرج من تحت أشعار عينيه ... فاذا غسل يديه، خرجت الخطايا من يديه... فاذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه ... فاذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت اظافر رجليه .. ثم كان مشيه الى المسجد والصلاة نافلة » [2].

ففي هذا الحديث إشارة إلى حقيقتين علميتين هامتين : [3].

الأولى : ان الميكروبات عندما تصل إلى الجسم، فلها مداخل خاصة تختلف من ميكروب إلى آخر، فمنها ما يدخل عن طريق الأيدي مثل ميكروبات النزلات المعوية ... ومنها ما يدخل عن طريق الفم والأنف عن طريق الرذاذ مثل ميكروبات التهاب الحلق وهكذا .

الثانية : أن التنظيف الدائم لهذه المواضع من جسم الإنسان ــ كما يحدث في الوضوء ــ يجرف معه كل الميكروبات الكامنة، ويقي الإنسان من هذه الأمراض قبل ان تتمكن وتستفحل .

والحث على تنظيف الأسنان معروف ومشهور عن النبي، فعن أبي هريرة عن النبي قال : « لولا أن أشق على المؤمنين ــ وفي حديث زهير (على أمتي) ــ لأمرتهم بالسواك » [4]، وعن عائشة أن النبي ﷺ « كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك »[5].

---

١ ــ أحمد شوقي الفنجري، الاسلام والنظافة : ٣٨ .
٢ ــ أخرجه مالك والنسائي .
٣ ــ أحمد شوقي الفنجري ، الاسلام والنظافة : ٤٠ .
٤ ــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ١٤٣/٢.
٥ ــ نفسه : ١٤٤ .

واتخذ الرسول الكريم من اختلاف المسلمين إلى المساجد فرصة لتعويدهم على النظافة. فقد روى أبو هريرة « أن اعرابيا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به فقال لهم رسول الله : دعوه واريقوا على بوله ذنوبا من ماء او سجلا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » [1]. وعن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « التفل في المسجد خطيئة، وكفارتها دفنها » [2].

وكان ﷺ عليه وسلم يحب الطيب، يراه جميلًا للرجال وللنساء ما بقين في بيوتهن، فإذا خرجن فلا. وفي الحديث أنه ﷺ قال للصحابيات : « إذا شهدت إحداكن المسجد، فلا تمس طيبا » [3] . وقد أوصى بالطيب في جهاز بناته عليهن السلام، وكان يرى عند أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان ما حملته معها من طيب الحبشة وعودها فلا ينكره.

وفي سنن النسائي أن اعرابيا أتى رسول الله ﷺ فرآه رث الثياب، فسأله : ألك مال ؟ فقال الرجل نعم، من كل مال قد أتاني الله. فقال عليه الصلاة والسلام : « فاذا أتاك الله مالا فلتر أثر نعمته عليك وكرامته ».

وكان ﷺ على فرط تواضعه، يتجمل في لباسه ومظهره، ويحب لأصحابه أن يفعلوا ذلك عند المسجد، وبخاصة في صلاة الجمعة، قال : « ما على أحدكم لو اتخذ ثوبين لجمعته غير ثوبي مهنته » [4] . وعن عائشة قالت : « طيبت النبي ﷺ بيدي لحرمه، وطيبته بمنى قبل أن يفيض » [5].

٥ ــ الواقعيــة :

بين الواقعية والمثالية، تقلب الإنسان منذ ظهر على وجه الأرض حتى الآن، فهناك الصورة المثلى لما ينبغي أن يكون ولما يأمل أن يحدث، سواء نتيجة الفكر الفردي الخاص، أو لما ترسمه الفلسفات والمذاهب والعقائد، وذلك لتشوف الإنسان دائما لما هو أفضل وأحسن وأعظم. لكنه يحس بين جوانحه بالأهواء والنوازع والرغبات، ويصطدم بالظروف والوقائع والأحوال، فيجد نفسه في كثير من الأحوال وكأنه قد غلّت قدماه لا يستطيع أن يصل إلى « المثال » إلا بالخيال وإلا بالفكر وسبحاته. والبعض يحاول التخلص من الاشكال بأن يلغي إحدى الحياتين ، أو يحاول ذلك بأن يتخلى كلية عن « المثالية »، ويغرق إلى أذنيه في خضم الواقع، أو يفعل العكس ، فيعيش أسير الخيال متجاهلًا نبض الواقع وذبذباته .

وكلا الأمرين على حدة سبيل غير سليم لكي يسير الإنسان في طريق السواء، إذ لا بد من أهداف

---

١ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٣٧/٨ .
٢ ــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٤١/٥.
٣ ــ عائشة عبد الرحمن، الشخصية الإسلامية : ٢٩ .
٤ ــ نفسه : ٨٠ .
٥ ــ الامام البخاري، الجامع الصحيح : ٢١٠/٧.

بعيدة يعيش من أجلها ، ولا بد له من تصورات عليا يهتدي بها، ولا بد له من « نماذج » يحاول أن يصيغ واقعه وفقا لها، لكنه في ذلك لا بد أن يرتبط بواقع الحال، وظروف المجتمع، ومكوناته الشخصية وما فطر عليه من نوازع واستعدادات .. التوازن إذن بين المثالية والواقعية هو السواء المطلوب .

ولعل الإسلام في ما رسمه كل من القرآن والسنّة مما ينبغي أن يسلكه الإنسان المسلم، إنما يضع لنا « النموذج » و« المثال »، وليس مطلوباً هنا أن نكشف عن هذا المثال، فهو موضوع الإسلام كله. ولكنا نريد هنا أن نبين كيف أن الإسلام في سنّة نبيه ــ مصداقا لما هو في القرآن ــ يحرص على وضع (فطرة) الإنسان واستعداداته وقدرته على التحمل والتنفيذ موضع الاعتبار، بحيث نجد أن « مثالياته » ليست مما يستحيل تنفيذه وتطبيقه، وهذا هو ما نعنيه بالواقعية هنا. الواقعية بناء على ذلك لا تعني الوقوع في أسر ما هو (حادث) و (قائم) و(فعلي)، ولكنها تعني عدم معاندته والوقوف ضد التيار، ويتجلى لنا هذا بالأمور الخمسة التالية :

الأمـــر الأول : التكليف ضمن حدود الطاقة الإنسانية .

الأمر الثـــاني : رفع المسؤولية في أحوال النسيان والخطأ والإكراه التي لا يملك الإنسان دفعها .

الأمر الثالث : مراعاة مطالب الفكر والنفس والجسد الإنسانية، وعدم إهمالها ضمن حدود معينة .

الأمر الرابـــع : مراعاة واقع حال المجتمعات الإنسانية التي يتفاوت أفرادها في استعداداتهم وخصائصهم، وذلك في البيئات الإسلامية ، وفي أساليب التربية، وفي الأعمال الجماعية، وفي تحديد مناهج السلوك، وفي أصول المحاسبة والجزاء .

الأمر الخامس : مراعاة واقع حال الضعف البشري، وواقع حال النفس الإنسانية المفطورة على حب المخالفة والنزوع إلى الشذوذ، والمغامرة بامتحان المسالك الوعرة، وذلك بفتح باب الغفران للإنسان، وتهيئة أفضل الوسائل ليتخلص من الاثم، وليلقي عن كاهله مختلف الأوزار [1] .

وتتعدد المواقف والأحاديث التي تؤكد كل هذه الحقائق، ضمّنا بعضها ما سبق أن بسطناه من جوانب ونقاط، ونبسط هنا بعضا آخر. وسوف يجد القارىء أيضا فيما سيلي من جوانب ونقاط أخرى ثالثة . فعن مسعود الأنصاري، قال : قال رجل : يا رسول الله، لا أكاد ادرك الصلاة مما يطول بنا فلان، فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضباً من يومئذ، فقال : « أيها الناس. انكم تنفرون، فمن صلى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة » [2] .

---

١ ــ عبد الرحمن الميداني، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها : ١٩٠ ــ ١٩١ .

٢ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٢/٧ .

وعندما تحدث ثلاثة من المسلمين عما ينبغي أن يقوموا به من واجبات التدين والتعبد، قال أحدهم : أما أنا فاني اصلي الليل أبداً، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر : أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، جاء رسول الله ﷺ فسألهم : انتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني » [1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قلت : بلى يا رسول الله، قال : فلا تفعل.صم، وافطر، وقم، ونم، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينيك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا » [2].

وروى عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن الحولاء بنت تويت بن حبيب بن أسد ابن عبد العزى مرت بها وعندها رسول الله ﷺ فقلت : هذه الحولاء بنت تويت، زعموا انها لا تنام الليل، فقال رسول الله : «لا تنام الليل؟ خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا » [3].

وكل الرخص الشرعية في العبادات والفرائض منظور فيها إلى طاقتنا وأعذارنا [4]، فمثلا، نسهو في الصلاة، فينجبر سهونا بسجود السهو على ما هو موضح بالسنّة، ولنا أسوة برسول الله، إذ كان يسهو فيقول للصحابة : « إنما انا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني، وإذا شك أحدكم في صلاته ليتحر الصواب، فليتم ما عليه، ثم ليسجد سجدتين ».

لقد تعلمت الأمة من نبيها القدوة، ما ترحم به ضعف البشرية، وتتقي محنة القنوط، وفتنة تقديس البشر وتنزيههم عن الخطأ، وادعاء الكمال لهم، وذلك ما لا يكون إلا لله وحده. ومن مأثور دعائه ﷺ « اللّهم إن محمداً بشر يغضب كما يغضب البشر، فايما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته ، فاجعلها له كفارة، وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة » .

« اللّهم إليك أشكو ضعف قوّتي وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملّكته أمري ؟ إن لم يك بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بك بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علّي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك » [5].

---

١ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٢/٧.

٢ ــ نفسه : ٤٠/٧.

٣ ــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٧٢/٦.

٤ ــ عائشة عبد الرحمن ، الشخصية الإسلامية : ٤٩ .

٥ ــ ابن هشام، السيرة النبوية : ٦٠/٢ .

وعندما سأله أبو بكر أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته، قال : « قل : اللّهم إني ظلمت نفسي كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم » .

٦ ــ الضبط الجنسي :

ينظر الإسلام الى الدافع الجنسي نظرته إلى الدوافع الفطرية الأخرى، فيحترمه ولا يحقره، ويسعى لاشباعه بما يتناسب وكرامة الإنسان، فقد خلق الله المخلوقات كلها وفق قانون الزوجية ليتم التكاثر والتعمير لهذا الكون.

ولما كان الإنسان قد كرمه الله وفضله، كانت طريقته في إشباع دوافعه الفطرية تختلف كل الاختلاف عن الحيوانات والبهائم الأخرى. فطريقته في مأكله ومشربه، وسعيه إلى معاشه، وتمتعه بالحياة، تختلف تماما عن مسلك الحيوانات، لما له من عقل وتمييز وشعور وإحساس. وكان العلاقة الجنسية متعلقة ببقاء النوع الإنساني وامتداد حياته، وكان تحقيقها وفق قانون الفطرة هو الذي يليق بالإنسان، ويضمن تحقيق النتائج الصالحة المترتبة عليها [١].

ولدى النظرة الى الدافع الجنسي، يخطىء كثير من الناظرين هذه الزاوية التي ينبغي أن تكون مدخل المناقشة في هذا الدافع. ومبعث الخطأ ملابسات تحيط بهذا الدافع عند كل من الذكر والأنثى، فأدى النظر إلى تلك الملابسات دون غيرها إلى خطأ الرؤية الصحيحة في هذا الموضوع .

والملابسات التي تحيط بهذا الدافع تتمركز عند التطلع القوي إلى الاشباع. والتطلع القوي إلى الاشباع لم يجعله الله عبثا في حياة الإنسان، وإنما كان على هذا النحو لتحقيق التعادل والتوازن في الحياة الجادة الهادفة [٢] .

وبيان ذلك أن الإنسان، ذكراً كان أو أنثى ، يعاني كثيرا حيال ثمرات اللقاء الجنسي الماثلة في الابناء قياما وتربية وإنفاقا من جانب الذكر، وحملا ووضعا ورعاية من جانب الأنثى، وهذه المعاناة لا يستطيع إنسان مهما استبدت به المكابرة أن ينكرها .

فلو كان الدافع الجنسي لدى الإنسان أقل مما خلقه الله عليه، لاستطاعت المعاناة في سبيل الأبناء أن تطغى عليه وتغلبه حتى يتلاشى، ويصير الجنس البشري إلى الانقراض. وتحقيق التوازن والتعادل تقضي طبيعته أن يكون الدافع الجنسي في كيان الإنسان،على النحو الذي نجده ونحسه استمرارا للوجود الإنساني .

فالنظرة إلى ملابسات هذا الدافع وتسليط الأضواء عليها، واغفال الزاوية الأصلية للنظر وإهمالها، أدى إلى خطأ في التصوير وبالتالي إلى الخطأ في التقويم، ثم الخطأ في الحكم .

---

١ ــ أحمد محمد العسال، الاسلام وبناء المجتمع : ١٢٦ .

٢ ــ يوسف الشال ، الاسلام وبناء المجتمع الفاضل : ١٢١ .

وإذا ألقى الله في قلب كل جنس هوى للجنس الآخر، فقد كان طبيعيا أن يسمح بالالتقاء الجنسي بينهما، ولكن في اطار الزواج، ذلك أن الأمر ليس مجرد أن يشبع الطرفان لذتهما الجنسية فقط، ولكن لا بد من اشباع الحاجة الاجتماعية أيضاً. فالإسلام يهدف من وراء ذلك أولا الى إنتاج النسل، وهو الوظيفة القريبة المباشرة، ولكن هذا جزء من تناسق أكبر، فهنالك الأسر التي تستجيب لمشاعر الألفة في نفس الرجل والمرأة استجابة كاملة، لا تتيسر ـــ بنوعها ومداها ودوامها ـــ في أية علاقة أخرى يمكن أن تقوم وتستجيب في الوقت نفسه لمطالب الاطفال الذين انجبتهم في المرحلة السابقة ـــ و في الجزئية التي سبقت هذه في الترتيب ـــ وفي الأسرة يتربى الأطفال على مشاعر الحب التي تخفف من شهوة الصراع الذي تدفع إليه طبيعة الحياة، فيتحقق بذلك أكبر قسط من السعادة لهؤلاء الأطفال أنفسهم ولآبائهم من قبل، وهم في الوقت ذاته نواة لمجتمع المستقبل [1].

ولعل ما يصور اقرار السنّة لقوة الدافع الجنسي، ما رواه جابر [2] أن رسول الله ﷺ رأى امرأة ، فأتى امرأته زينب وهي تمعي [3] منيئة لها (يعني كانت مشغولة بعمل ما ولكن يمكن تركه)، فقضى حاجته ، ثم خرج إلى أصحابه فقال : « ان المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم المرأة، فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما في نفسه ».

وهو ذا يحذر الرجال من فتنة النساء فيقول أيضاً فيما يرويه أسامة بن زيد : « ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء » [4]، فإنما يعني ذلك ما تملكه من شدة الجاذبية وقوة السحر الأنثوي، ولا يعني بالطبع حكما عامّا عليها، وفي كل الأحوال .

وقد سبق أن مر بنا دعوة الرسول للشباب بالتزوج لمن استطاع (الباءة) ويوضح النووي المقصود بالباءة بقوله :

« اختلف العلماء في المراد بالباءة هنا على قولين يرجعان إلى معنى واحد: أولهما ان المراد معناها اللغوي وهو الجماع، فتقديره، من استطاع الجماع لقدرته على مؤنه ـــ وهي مؤن النكاح ـــ فليتزوج، ومن لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنه، فعليه بالصوم ليدفع شهوته ويقطع شر منيه ... وعلى هذا القول وقع الخطاب مع الشباب الذين هم مظنة شهوة النساء، ولا ينفكون عنها غالبا » [5].

ومن هنا نجد ان (الكبت) مناف لفكرة الإسلام ومنهجه في الحياة، كما يؤكد لنا ذلك رسوله، فكرته ومنهجه هي أخذ الكائن البشري بجميع خصائصه وجميع طاقاته ، واستغلالها كلها لتحقيق أهداف

---

١ ـــ محمد قطب ، الانسان بين المادية والاسلام : ٢٥٣ .
٢ ـــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ١٧٨/٩ .
٣ ـــ معنى : دلك، منيئة، الجلد أول ما يوضع في الدباغ .
٤ ـــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٥٤/١٧ .
٥ ـــ أحمد محمد العسال ، الاسلام وبناء المجتمع : ١٢٩ .

الحياة . وفي ظل هذه الفكرة وذلك المنهج، لا يوجد مجال للكبت ولا أصل لمحاربة الطاقات، إذ كيف يكبتها وهو في حاجة إليها ؟ نعم كيف يكبت شهوة الجنس وهو في حاجة إلى ذرية صالحة كثيرة تنشر الفكر في أرجاء الأرض وتعمرها ؟ إنه « يضبط »، والضبط ليس كبتا وإن تشابها في مظهر الامتناع [1].

وأتاح الرسول الكريم ﷺ الفرصة للمسلمات أن يسألن عن بعض الأمور المتعلقة بالمسألة الجنسية، فقد حدث سفيان بن عيينة عن عائشة أنها قالت : « سألت امرأة رسول الله ﷺ كيف تغتسل من حيضتها؟ قال:فذكرت انه علمها كيف تغتسل ، ثم تأخذ فرصة من مسك فتطهر بها، قالت : كيف أتطهر بها ؟ قال : تطهري بها؟سبحان الله! واستتر، وأشار لنا سفيان بن عيينه بيده على وجهه، قال : قالت عائشة : واجتذبتها إليّ وعرفت ما أراد النبي ﷺ، فقلت : تتبعى بها أثر الدم » [2].

كذلك روت أم سلمة أن أم سليم جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت : يا رسول الله : ان الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل اذا احتلمت ؟ قال النبي : إذا رأت الماء، فغطت أم سلمة، تعني وجهها، وقالت : يا رسول الله : أوَ تحتلم المرأة ؟ قال : نعم تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها » [3].

٧ ــ المسؤولية الاجتماعية :

وأيا كانت نظرة الباحثين إلى « السواء » ، فهناك ما يشبه الإجماع على أن علامة رئيسة من علامته، هي أن تكون الشخصية على قدر من الكفاية الذي يمكنها من الاطلاع بمسؤولياتها نحو المجتمع الذي يكون صاحبها عضوا فيه، والباحثون على اختلاف حول المقصود بـ « المسؤولية الإجتماعية » هنا ، فإذا كان هناك من يفسرها بأنها تتطلب « تكيفا » مع الواقع الاجتماعي ــ كما سبق وأن بينا ــ فإن البعض الآخر يرى أنها تتطلب في بعض الأحوال (ثورة) على هذا الواقع ، وجهدا متصلا لتغييره وتطويره . والحق أننا لا نرى تناقضاً بين الأثنين لو حددنا « الزمن » وعرفنا « الواقع الاجتماعي » : ففي الزمن الذي يصير فيه الواقع الاجتماعي إلى تفسخ وتحلل وجمود، فها هنا تكون المسؤولية الاجتماعية في «الثورة» و«التطوير» و«التغيير»، كما حدث مثلا بالنسبة للمسلمين الأوائل. أما إذا كان العهد القائم يشير إلى صلابة الأسس والدعائم التي يقوم عليها المجتمع، وسعيه الجاد نحو الأهداف التي فيها سعادة الجميع وخيرهم، فالتكييف هنا هو المطلوب، وإن كان الأمر يمكن حتى في هذه الأحوال، أن يكون مسؤولية المثقفين والرواد والمفكرين، وذلك بالنظر الناقد، وتعرية الأخطاء بصفة مستمرة لتصحيح المسيرة دوما .

ولا نظن أننا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام في أصول العقيدة وفروض العبادات وأحكام المعاملات، وكل

---

١ ــ محمد قطب، منهج التربية الإسلامية : ١٣٦ .

٢ ــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ١٤/٤ ــ ١٥ .

٣ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٤٤/١ .

التوجيهات لسلوك الإنسان، إنما ينظر إليه من حيث هو اجتماعي بطبعه. وهل ينظر القرآن إلى الإنسان فرداً، وهو يأمره بالعدل والإحسان والبر وصلة الرحم، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والوفاء بالعهد، والصدق والتواضع، وينهاه عن العقوق والجور والبغي وقطع الأرحام، وعن المن والرياء، والأذى والفساد ؟ .

مثل هذه الأوامر والنواهي لا تتعلق بتعامل الإنسان مع نفسه ، وإنما هو التعامل مع الناس، فليس الإنسان حين يبر ويعف ويفي،ويصدق ويصلح، أو يخون ويفشي،ويظلم ويزور،ويعتدي ويطغى، يكون في نطاق فرديته الخاصة [1].

والمجتمع في الإسلام مجتمع معنوي، أي أن العلاقات الاجتماعية فيه تبنى على الروابط الأدبية من تواد وتراحم، لا على أساس من العلاقات المادية فقط، ولذلك يقول ﷺ : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، اذا اشتكى عضو، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » [2]. ولا شك ان العلاقات المعنوية التي تقوم على المودة والرحمة هي التي يقوم عليها بنيان الجماعات الإنسانية ، وهي الروابط التي تربط آحاد الناس ببعضهم .

ومثل المجتمع المادي الذي يبنى على الاجتماع أو على الاقتصاد في مكان،كمثل الأحجار المتراصة التي يجاور بعضها بعضاً من غير ارتباط وثيق بين أجزائها، وإنه مهما يكن فيه من تنسيق هندسي، لا يمكن أن يكون متلاحما متصلا، وإنه ينهار لأقل عاصفة تثور، ولا يستمر مجتمعاً إلا إذا كان مهندس البناء قوّاماً عليه يتتبع ثغراته فيسارع بسدّ ما يظهر منها بعمل مادي أيضاً يكون قوة غالبة على الإرادات الإنسانية الحرة، أما المجتمع المعنوي، فإنه يقوم على أساس من العلاقات الروحية الرابطة بين أجزائه، وهو متماسك غير قابل لأن تتداعى لبناته،لأنه مترابط الأجزاء بما لا يقبل الانقطاع ما دام يغذى بالروح والدين [3].

ومع ذلك، فلم تهمل السنّة النبوية الجانب المادي، بل نوهت به وأشارت إليه بالحث على مد يد المعونة إلى المحتاج، وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب، وتأمين الخائف، وإشباع الجائع، والمساهمة العملية في إقامة المصالح العامة. فعن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال : فجاءه قوم حُفاة عراة مجتابي النمار [4] أو القباء، متقلدي السيوف من مضر، بل كلهم من مضر. فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذن،وأقام فصلى ثم خطب فقال :

---

١ ــ عائشة عبد الرحمن ، الشخصية الإسلامية : ١٨٨ .

٢ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ١٣/٨ .

٣ ــ محمد أبو زهرة ، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام : ٥٦ .

٤ ــ النمار، جمع نمرة، وهي كساء مخطط من صوف، مجتابيها ، أي لابسيها، وقد خرقوها في رؤوسهم. وتمعّر : أي تغيّر .

﴿ **يا أيها الناس. اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾ ، إلى آخر الآية . ﴿ **إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾ والآية التي في الحشر، ﴿ **اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ،واتقوا الله** ﴾ تصدق رجل من دينار من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره، حتى قال : ولو بشق تمرة، فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة » [1]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من كان وصلة (شفيقاً موصولا في عمل خير أو تسهيل أمر شاق) لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بر، أو تيسير عسير، أعانه الله على إجازة (مرور) الصراط يوم القيامة عند (زلق) الأقدام » [2].

وان كسب المودة وإستمالة القلوب من السمات التي حث عليها الرسول ﷺ لأن من شأنها أن تدعم روابط المجتمع وتشيع المحبة والتعاون بين الناس، ولقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم » [3]. ذلك أن مثل هذه التحية تضفي لك ود الآخر، وتسكب في نفسه الحب، وتشيع حوله الطمأنينة والسلام .

ولقد يكون بين الإنسان وأخيه جفوة أو خصام، وهنا تظهر قوة الخلق وسماحة النفس والتفاضل بين الناس. يقول ﷺ « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان : فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » [4]، ذلك لأن البادىء بالسلام أقوى إرادة وأصفى نفسا. إنه قد تغلب على أسباب الخصومة ودواعي القطيعة فقابل الإساءة بالإحسان ان كان قد أسيء إليه ، أو سعى إلى طلب الصفح إن كان هو الذي أساء إلى صاحبه، وعن طريق المبادأة بالسلام يلتقي الاثنان في ظل المودة والسلام .

وعن أبي ذر قال : قال لي النبي ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » [5].

وفي هذا الحديث تعميق لمعنى المعروف في النفوس، بحيث يكون طبيعة للإنسان وسجية من سجاياه، يجري فيه في سماحة ويسر، لا تكلف ولا معاناة، ذلك لان المعروف حركة نفسية قبل أن يكون عملا ماديا، وقيمته في دوافعه وأهدافه، لا في حجمه وصورته [6].

---

١ — المنذري ، الترغيب والترهيب : ١٧٢/٤ .
٢ — الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ١٠٣/٧ .
٣ — الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٣٥/٢ .
٤ — الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ١١٧/١٦.
٥ — نفسه : ١٧٧/١٦ .
٦ — محمد كامل حتة ، القيم الدينية والمجتمع : ١٩٦ .

والمعروف باب من أبواب الخير يسره الله لعباده ، ومنه بذل الصدقة بمعناها الإنساني الواسع العميق الذي لا يقتصر على الغني دون الفقير، ولا على القادر دون العاجز، ولا على القوي دون الضعيف ... بل الجميع ميسرة أمامهم أبواب هذا الخير، متاحة لهم أسبابه، يقول ﷺ : « ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس، قيل : يا رسول الله من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟ قال : إن أبواب الخير لكثيرة : التسبيح والتحميد، والتهليل والتكبير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتميط (تبعد) الأذى عن الطريق، وتسمع الأصم، وتهدي الأعمى، وتدل المستدل على حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ــ فهذا كله صدقة منك على نفسك، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة » . [1].

وهذا المعنى يعطي الصدقة مفهوماً يحقق كرامة الإنسان ، ويشعره بالعزة والقدرة على العطاء، وإنه إن كانت تنقصه بعض الأسباب، فإنه يملك أسبابا أخرى يفيد بها المجتمع، ويرد له بها ما عليه من دين. فليست الصدقة إذناً ، وليس بذل المعروف أمراً ، يملكه الغني دون الفقير، ويجود به عليه، أو يستأثر به القوي ويتفضل به على الضعيف، ولكن أفراد المجتمع فيه سواء، كل منهم يستطيع أن يعطي وأن يكون صاحب اليد العليا، وأن تكون له مواقف إيجابية نافعة بين الناس إذا ما طرق أبواب الخير والمعروف، وإنها لكثيرة .

هكذا فهم المسلمون الأولون مبدأ مسؤولية المؤمنين بعضهم عن بعض، وقاموا بالنصح والارشاد، ينصح عالمهم جاهلهم، ويرشد كبيرهم صغيرهم، بل لقد نصح الصغير الكبير، والمرؤوس الرئيس، والمحكوم الحاكم، وتقبل الجميع النصح من الجميع شاكرة ألسنتهم، مطمئنة قلوبهم، ومن ثم استقامت لهم الأمور وتقدمت بهم الحياة، وكانوا أقوياء وغيرهم الضعيف، وأعزاء وغيرهم الذليل. وظلوا كذلك يتعاونون على البر والتقوى، ويتناصحون بالخير والمعروف حتى نبتت فيهم نابتة الشهوة والهوى، فافسدت عليهم تصورهم للحياة [2].

٨ ــ القيادة والتوجيه :

ومما هو دارج في فهم كثير من الناس، أن القيادة والتوجيه أمر يختص به عدد قليل من الناس أوتوا من المواهب والقدرات والسبل التي تمكنهم من ممارستها ما لم تؤته الجمهرة الكبرى من الناس. ووقع في وهم الكثيرين أيضاً ، أنها تقوم على التسلط والتحكم والاحتكار. ولكن الإسلام يتجه اتجاها آخر بصدد مسألة القيادة، إذ لربما صدق الجزء الأول من الكلام على مجالات معينة ومحددة وبخاصة في المجالات التخصصية. لكن هذا لا يسقط مسؤولية القيادة عن عاتق الجمهرة الكبرى من الناس، فالجميع قادة، كل على مستوى معين :

« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته ،

---

١ ــ محمد كامل حتة ، القيم الدينية والمجتمع : ١٩٧ــ١٩٨.

٢ ــ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة: ٤٥٧ .

والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده، وهو مسؤول عنه، الا فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته » [1].

وهكذا يتحدد معنى (القيادة) في الإسلام بمعنى (الرعاية)، والمغزى واضح ، ذلك أنها تقوم على الحدب والتوجيه المخلص والمحبة والإيمان ، ولا تقوم على القهر والقسر والاستبداد. وهي هنا موزعة على الجميع، فقد تكون قيادة سياسية يتولى أمرها ملك أو رئيس جمهورية أو وزير، وقد تكون قيادة منزلية يتولاها رب الأسرة، من جوانب معينة، كما تتولاها الأم أيضا في مجالات خاصة بها، وقد تكون اقتصادية يتولاها الموظف أو العامل في مجال عمله ... وهكذا فإن هذه المجالات التي ذكرها رسول الله ﷺ ، إنما هي مجرد « أمثلة » و« نماذج » يقاس على منوالها ولا تعني الحصر التام والاحصاء الكامل .

وإذا كانت المساواة في إعطاء الحقوق تكريماً للإنسان، فإن المساواة في المسؤولية تكريم أكبر، لأن الاضطلاع بالمسؤولية واحتمال تبعاتها قدرة أعلى من أخذ الحقوق. وإذا كان الإسلام قد كرم الإنسان باعطائه حقوقه، فقد كرمه بدرجة أكبر، أو في الحق أكمل تكريمه له، بأن وضع على كاهله مسؤولياته تجاه نفسه ومجتمعه، بل تجاه الحياة كلها، ومنها مسؤوليته عما استرعى، مسؤوليته أمام الله، وأمام جماعته أو من يمثلها، وأمام ضميره . [2].

ويضع الرسول ﷺ العديد من القواعد والإرشادات التي من شأنها ــ في التطبيق ــ أن تمكن الإنسان الذي يتولى قيادة أمة ، أن يُحسن القيادة ويجيد الرعاية، فيوفر بذلك المناخ الضروري الذي يساعد على نشأة الشخصية السوية. ذلك أن دراستنا للتاريخ قد أثبتت لنا، بما لا يدع مجالا للشك، ان **المجتمعات التي يسودها الاستبداد ويظللها القهر والعسف لا يمكن أن تفرخ الا شخصيات غير سوية**، ورحم الله الكواكبي عندما قال : إن الاستبداد يقلب الحقائق، فيجعل الرعية خادمة للرعاة كلها، خلقت لأجلهم، وهؤلاء يقبلون ويقنعون. ويسوق الاستبداد الناس إلى الاعتقاد بأن **طالب الحق فاجر، وتارك حقه مطيع والمشتكي المتظلم مفسد، والنبيه المدقق ملحد، والخامل المسكين، هو الصالح الأمين، وأحيانا ما يتبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولا، والغيرة عداوة، والشهامة عتوا، والحمية جنوناً، والإنسانية حماقة، والرحمة مرضاً، واعتبار النفاق سياسة، والدناءة لطفا، والنذالة دماثة** » [3].

إن الرسول يحذر مَنْ لديه عمال أن يؤذيهم ويستبد بهم، فقد قال: أبو مسعود البدري : كنت أضرب غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتاً من خلفي : اعلم أبا مسعود، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال : فلما دنا مني، إذ هو الرسول ﷺ ، فإذا هو يقول : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا

---

١ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٣٤/٧ .

٢ ــ سيد أحمد عثمان، المسؤولية الإجتماعية في الإسلام : ١٨ .

٣ ــ عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد: ٢٩ .

الغلام، قال، فقلت : لا أضرب مملوكا بعده أبداً »[1]. ولذا نجده عليه السلام يقول « من لطم مملوكه أو ضربه ، فكفارته، أن يعتقه »[2].

ويحرص الرسول على توفير العلاقات السليمة لابين المسلم وأقرانه فحسب، ولكن حتى بينه كذلك وبين خادمه، فعن أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صنع خادمه طعامه، ثم جاء به وقد ولى حره ودخانه، فليقعد معه فليأكل، فإن كان الطعام قليلا، فليضع في يده أكلة أو أكلتين » قال داود، يعني لقمة أو لقمتين »[3].

ورفق الراعي على رعيته أمر اساسي، وهو هام يستحق من الرسول أن يرفع يده داعيا الله « اللهم من ولي من امر أمتي شيئا فشق عليهم فاشفق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم ، فأرفق به »[4].

وبالطبع ، فإن النبي ليس من ذلك الطراز الذي يقف جهده عند حد النصح والتوجيه والإرشاد، وإنما هو ذلك النوع من الرعاة الذين يأخذون أنفسهم بما يقولون، ومن ثم يكون لكلامه أثره على الرعية، اذ يتحمسون للتطبيق والاتباع، فعن أنس أنه قال : « خدمت النبي ﷺ عشر سنين ، فما قال لي أف، ولا لم صنعت، ولا ألا صنعت »[5]. وعن هشام بن حكيم بن حزام، قال إنه مر بالشام على أناس وقد أقيموا في الشمس وصُبَّ على رؤوسهم الزيت، فقال : ما هذا ! قيل : يعذبون في الخراج، فقال : أما اني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يعذب الذين يعذبون في الدنيا[6] ويشرح ذلك في حديث آخر فيقول ﷺ لزوجته عائشة :

« يا عائشة ، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على سواه »[7].

وقسوة الراعي على الرعية ليست في الضرب فقط، ولكنه إذا عمد إلى الغش والكذب، فهو أيضا مكروه ومرذول، فعن الرسول ﷺ أنه قال « ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم، إلا حرم الله عليه الجنة »[8].

ويزيد على ذلك بأن حتم على الراعي أن يرشد وينصح ويوجه، إذ إن ذلك ليس من باب الاختيار بحيث يمكنه أن يفعل أو لا يفعل، كلا « ما من عبد ـــ كما يؤكد النبي ـــ استرعاه الله رعية ، فلم يحطها

---

١ ـــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ١٣٠/١١ .
٢ ـــ نفسه : ١٢٧/١١ .
٣ ـــ نفسه : ١٣٥/١١ .
٤ ـــ نفسه : ٢١٣/١٢ .
٥ ـــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ١٧/٨ .
٦ ـــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ١٦٧/١٦ .
٧ ـــ نفسه : ١٤٦/١٦ .
٨ ـــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ٨٠/٩ .

بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة » [1].

ولا خوف على الراعي من إمكان حدوث الخطأ ما دام القصد شريفا والنية طيبة، فعن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم اخطأ فله أجر » [2].

ثم يشير الرسول إلى مزلق معين إذا تنبه له الراعي أو القائد، أمن الكثير من الخطأ وإساءة التقدير، فقد كتب أبوبكر إلى ابنه وكان بسجستان بأن لا تقض بين اثنين وأنت غضبان، ذلك لأنه سمع النبي ﷺ يقول : « لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان » [3].

وليست المسؤولية مسؤولية القائد فقط، إنها مسؤولية الرعية كذلك في تجنيب القائد زلل سوء التقدير في الحكم، وذلك بأن يقدموا له البيانات الصحيحة والمعلومات الصادقة، فعن أم سلمة زوج النبي عنه ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال : « إنما أنا بشر ، وانه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو فليتركها [4].

وكلنا يعلم كيف أن المسؤول عن عمل ما تتكاثر عليه العطايا والهدايا، لا حبا فيه وتقديراً له، ولكن تليينا له وضغطاً أدبياً عليه ، كي يسهل أمور الهادي وييسر أحوال المعطي وفقاً لما يرغب ويتمنى. ولهذا ألح الرسول على رفض ذلك رفضا باتاً، ذلك انه كان قد استعمل عاملًا [5]. فجاءه العامل حين فرغ من عمله، فقال : يا رسول الله، هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقال له : أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك ونظرت أيهدى لك أم لا ؟ ثم قام رسول الله ﷺ عشية بعد الصلاة وأثنى على الله بما هو أهل له، ثم قال « أما بعد، فما بال العامل نستعمله فيقول هذا من عملكم وهذا أهدي لي ... افلا قعد في بيت أبيه وأمه، فنظر هل يهدى له أم لا ؟ فوالذي نفس محمد بيده، لا يغل أحدكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه » .

والتمييز بين الرعية دون وجه حق، مزلق لا يقل خطورة عن غيره، انه يفرغ العدل من مضمونه، بل ويهدم الكثير من المبادىء التي ينبغي أن يقوم عليها العمل القيادي السليم، والتوجيه السوي، فعن عائشة رضي الله عنها، ان قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا ومن يكلم رسول الله ﷺ ؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله : أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب، ثم قال : « إنما أهلك

---

١ ــ الامام البخاري، الجامع الصحيح : ٨٠/٩

٢ ــ نفسه : ١٣٣/٥ .

٣ ــ نفسه : ٨٢ .

٤ ــ نفسه : ١٧٢/٣ .

٥ ــ نفسه : ١٦٢/٨ .

الذين قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو ان فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها »[1].

ومن مثل هذه المسؤوليات والواجبات المتعددة، أوجب الرسول على المرؤسين والرعية إطاعة قائدهم، فقال : « إن أمّر عليكم عبد مجدع [2]، يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا »[3]. فالطاعة هنا مشروطة بالعمل بكتاب الله، وليست مطلقة، وهو ينص ويصرح بذلك في حديث آخر عندما يقول : « السمع والطاعة على المرء فيما أحب وكره، فاذا أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة »[4].

٩ ــ الترف مخرب للشخصية السوية . :

ومعلوم أن الترف شيء زائد عن الثراء، فليس لزاما على كل ثري أن يكون مترفاً ، لأن الترف سوء التصرف بالنعمة، وهو يمثل الطرف المقابل للاقتصاد، والذي هو التزام الاعتدال في معاملة المال. فالمترف قصير مدى الفكر، لا يكاد يرى أبعد من لحظته العابرة. انه في نطاق الخير شديد الحرص حتى الشح، وإذا اضطر للاسهام في أي مجالات البر عمد إلى استيفاء الثمن عن طريق الشهرة أو الرشوة، وكلاهما ذريعة إلى الاستعلاء، وإلى مزيد من الاستغلال ... على أنه في الجانب الخاص بذاته شديد التبذير، لا هم له الا إظهار القدرة على الاستمتاع بكل طريق من الملاذ ... مدفوعاً إلى ذلك بحوافز الغرور الذي يخيل إليه أن غاية الحياة لا تعدو تضخيم الذات والتفوق على كل منافس في تحقيق الشهوات،إلى حد يجعله موضع الهزء والاشمئزاز لدى العقلاء[5].

وهكذا ينحصر أثر المترف في مجتمعه في الترويج لعبادة المادة، والازدراء بالقيم، والاندفاع المجنون خلف المتاع الزائل .. فلا يتالك قصار البصيرة ان يقتفوا خطواته في المنحدر نفسه حتى ينتهوا إلى المصير الذي سبق إليه قوم نوح عليه السلام حين استهواهم مسلك هؤلاء الفسقة فعصوا رسول ربهم ﴿ **واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا** ﴾[6]. حتى إذا غلب هذا الاسلوب من الزيغ على سواد المجتمع ــ كما هو الشأن في الكثير من ديار المسلمين ــ فقد ضوابطه العاصمة، وارتطم في مهاوي الانهيار، وبذلك يكون قد سعى إلى حتفه بظلفه، وانتهى إلى الدمار الموعود، ومن ثم كان الترف قرين المذمة في القرآن الكريم .

ومن هنا كان تحذير الرسول الدائم لمخاطر الترف، وحثه المستمر على وجوب التقشف والزهد

---

١ ــ البخاري ، الجامع الصحيح : ٢١٣/٤.
٢ ــ أي مقطوع الأطراف .
٣ ــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٢٢٦/١٢ .
٤ ــ نفسه : ٧٨/٩ .
٥ ــ محمد المجذوب، الترف وأثره في مصائر الأمم : ٢٨ .
٦ ــ نوح : ٢١ .

المعقول، فقد بعث أبو عبيدة بن الجراح بجزية أهل البحرين، فقدم بمال منها، فسمعت الأنصار بقدومه، فجاءوا، فتبسم الرسول حين رآهم وقال : « أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء، قالوا : أجل يا رسول الله. قال : فابشروا، وامّلوا ما يسرّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما الهتهم » [1].

وللترف مظاهره وآياته التي لا تخفى على أحد، فمن ذلك ما أشار إليه الرسول من استخدام الأواني الفضية والذهبية في المأكل والمشرب، وتأكيده أن ذلك ليس من السواء في التصور الإسلامي، فعن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من شرب من إناء من ذهب أو فضة ، فإنما يجرجر في بطنه نارا من جهنم » [2].

وكذلك في الملابس، فعن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ : « من جر ثوبه من الخيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة » [3].

وفي أثاث المنزل، فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال له : « فراش للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان » [4] قاصدا بذلك أن حاجة الإنسان لها بالطبع حدود معينة، فإذا حوى فراشه على ما يزيد عن هذه الحاجة، فإنما يكون في هذا مقترفاً لخطأ .

وفي الصورة المقابلة، نجد الرسول يقنع بالقليل في مثل هذه الأمور، مع قدرته على أن يحصل على الكثير، فعن عائشة أنها قالت : كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا، إنما هو التمر والماء إلا أن نؤتى باللحيم (اللحم) [5]. وعن أنس قال : [6] « كان أحب الثياب الى رسول الله ﷺ، الحبرة » [7].

وعن ابن عمر قال : رأى عمر عُطَاردا التميمي يقيم بالسوق حلة سيراء [8] وكان رجلًا يغشى الملوك ويصيب منهم، فقال عمر : يا رسول الله إني رأيت عطاردا يقيم في السوق حلة سيراء فلو اشتريتها فلبستها لوفود العرب إذا قدموا اليك، وأظنه قال، ولبستها يوم الجمعة، فقال له رسول الله ﷺ : إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة، فلما كان بعد ذلك، أتى رسول الله ﷺ بحلل سيراء. فبعث إلى عمر

---

١ — الامام البخاري ، الجامع الصحيح : ١١٢/٨ .
٢ — الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٣٠/١٤ .
٣ — الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ١٦/١٤.
٤ — نفسه : ٥٩/١٤ .
٥ — الامام البخاري ، : الجامع الصحيح ١٢/٨ .
٦ — الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ٥٦/١٤ .
٧ — أي ثياب من كتان أو بطن محبرة،أي مزينة .

بحلة، وبعث إلى أسامة بن زيد بحلة، وأعطى عليا بن أبي طالب حلة، وقال : شققها خمرا بين نسائك. قال : فجاء عمر بحلته يحملها، فقال : يا رسول الله، بعثت إلي بهذه، وقد قلت بالأمس في حلة عطارد ما قلت، فقال : اني لم أبعث بها اليك لتلبسها، ولكني بعثت بها إليك لتصيب بها. وأما أسامة فراح في حلته، فنظر إليه رسول الله نظرا عرف أن رسول الله قد أنكر ما صنع، فقال : يا رسول الله، تنظر إلي، فأنت بعثت إلي بها، فقال : انا لم ابعث بها إليك لتلبسها، ولكني بعثت بها إليك لتشققها خمرا بين نسائك » [1].

إذن ، فما العمل بما يزيد على الحاجة ؟ التصدق على الآخرين ممن هم في حاجة إلى مثل هذا فعن أبي ذر قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ في حَرَّة المدينة عشاء ونحن ننظر الى أحد، فقال لي رسول الله ﷺ : يا أبا ذر،قال : قلت : لبيك يا رسول الله، قال : ما أحب أن أُحدا ذاك عندي ذهبٌ امسى ثالثةً عندي منه دينار إلا دينارا أُرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا، حثا بيْن يديه وهكذا عن يمينه، وهكذا عن شماله، قال : ثم مشينا فقال : يا أبا ذر، قال : قلت : لبيك يا رسول الله،قال إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا مِثْل ما صنع في المرة الاولى » [2]. وتأكيدا لهذا نجده يقول في رواية عن أبي هريرة : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللّهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » [3].

ثالثـــا : تعليم السنة وتعلمها :

اجتمعت للسنّة إذن مختلف الأدلة والبراهين والجوانب التي تجعل دراستها أمرا لا بد منه لكل مسلم، ومن هنا كان طبيعياً أن يجعلها المسلمون محوراً أساسياً يدور حوله التعليم. وقد اتخذت السنّة عدة سبل في انتقالها إلى سائر المسلمين من نبع النبوة محمد ﷺ ، ونشير إلى بعض هذه السبل، إذ إن ذلك قمين بأن يرشدنا بالتالي إلى الجهود التي يجب أن نسلكها في سبيل ذلك، وهي بالطبع لن تكون مماثلة، ولكنا نقول، على غرارها، من ذلك [4].

١ ــ كانَ الرسول بطبيعة الحال هو الرائد الأول والمعلم الأول الذي بذل أقصى الجهود وأمضاها في سبيل تبليغ مبادىء الإسلام إلى الناس أجمعين ، ولجأ في سبيل ذلك إلى ولوج مختلف الطرق لا يستصعب منها طريقاً . ولا يركن إلى دعة وسكون إذا ما لاحت له فرصة نشر الدعوة وشرحها، ففي موسم الحج، تأتي الوفود من مختلف أنحاء الجزيرة، فيسرع منتهزاً هذه الفرصة لممارسة مهمته التعليمية، وهو يجلس سرا في دار الأرقم بن عبد مناف،متخذا منها أول مركز للتربية الإسلامية في تاريخ الإسلام .

---

١ ــ الامام مسلم ، الجامع الصحيح : ١٤/٤٠ .
٢ ــ نفسه : ٧/٧٥ .
٣ ــ نفسه : ٩٥ .
٤ ــ محمد حجاج الخطيب، السنّة قبل التدوين : ٦٩ .

٢ ــ ولعل تأملنا في ما علية العقيدة الإسلامية من سهولة ويسر، ومن تجاوب مع الفطرة الإنسانية وقيامها على أسس من المنطق والعقل، يجعلنا ندرك أن طبيعتها هذه قد سهلت عملية تعليم السنّة وتعلمها،فأقبل عليها كل من سمع بها واستساغها بسرعة. ولعل هذا أيضاً يبرر ذلك المبدأ التربوي الهام، وهو أن موضوع التعلم نفسه إذا كان سلسا سهلًا متجاوبا مع طبيعة الإنسان ، مستهدفا خيره وخير الإنسانية أجمعين، سهل بذلك على المعلمين تعليمه وعلى التلاميذ تعلمه .

٣ ــ كذلك بذل صحابة الرسول رضوان الله عليهم جهودا واضحة في ذلك ، إذ انهم بمصاحبتهم له ﷺ معظم الوقت، وقفوا على الكثير من مبادىء الإسلام فتعلموها منه، وتعلموا منه أيضاً القاعدة العامة، وهي أن العبرة ليست بمقدار ما تعلمنا، وانما العبرة بشيئين : أولهما، العمل بما تعلمناه. ثانيهما : تعليم الآخرين ما تعلمناه. فانقلب كل واحد منهم معلما لا يترك فرصة إلا وعلم فيها من لم يعلم ما علمه، بادئاً بطبيعة الحال بأهله. ومن هذا ما أخرجه البخاري عن مالك ابن الحويرث، قال : « أتينا النبي ﷺ ونحن شيبة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن انا اشتقنا أهلنا ، وسألنا عمن تركنا في أهلنا، فأخبرناه، وكان رفيقاً رحيماً ، فقال : « ارجعوا إلى اهليكم ، فعلموهم ومروهم، وصلوا كما رأيتموني أصلي. وإذا حضرت الصلاة، فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم .[1].

٤ ــ المسلمات (الأوائل) ومنهن زوجات الرسول، وزوجات الصحابة، كن يسمعن من الرسول ومن أزواجهن الكثير من تعاليم الإسلام، فيتذاكرنه تثبيتا لإيمانهن، ويعملن به توجيهاً لحياتهن واقامتها على أسس إسلامية صحيحة . وبطبيعة الحال لم يقف الأمر بهن عند هذا الحد، وإنما بذلن أيضا جهودا متعددة في سبيل تعليم الأخريات ممن لم تتح لهن الظروف أن يعرفن ما عرفنه، وقد مر بنا أن المسلمات الأوائل قد وعين القاعدة التربوية الهامة، وهي ألّا حياء في العلم، فوجهن العديد من الاسئلة إلى الرسول نفسه الذي كان لا يدخر وسعاً في سبيل اجابتهن، فتمكن بذلك من تعلم كثير من شؤون الحياة من وجهة النظر الإسلامية، وكان هذا التعليم حيوياً، لانه كان نابعاً من مواقف عملية فعلية، فهو تعليم يقوم على الخبرة وبالخبرة .

وكان الرسول، صلوات الله عليه، يعلم مقدار حاجة قاطني المناطق المختلفة إلى معلمين ومرشدين يعلموهم أصول الإسلام، ولم يكن باستطاعته بطبيعة الحال أن يعلم الناس في المناطق كافة بنفسه فلم يكن إلا بشرا، ومن ثم فقد كان يختار من بين صحابته وتلاميذه، من يرسلهم إلى مختلف البقاع موصيا إياهم باتباع أحسن الأساليب التي تكفل اقناع الآخرين وتقبلهم تعاليم الإسلام. وانطلق هؤلاء بالفعل شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالًا حاملين معهم معالم التربية الجديدة، مبشرين بفلسفة الحياة الحقيقية، ناقلين للناس الخطوط الرئيسة لتكوين الشخصية الإنسانية التي تستحق رضا الله سبحانه وتعالى، وتتسلح بالمقومات كافة التي تكفل لها أيضا النجاح في الحياة الدنيا .

---

١ ــ الامام البخاري ، الجامع الصحيح (حاشية السندي) : ٥٢/٤ .

والحق ان هذا الموقف الحماسي ، لكل من شهد سنوات الإسلام الأولى لتعليم السنّة ونشرها، لم يفتر بانقضاء هذه السنوات كما يحدث لكثير من التعاليم والنظريات، إذ تشهد فتراتها الأولى نشاطاً ضخماً، حتى إذا اختفى صاحبها من مسرح الأحداث بدأ الفتور يعرف طريقه الى القلوب ... لقد استمرت الدفعة ... واستمر الجهد، وتواصلت الأنشطة. ونقل لنا بعض من بذل كثيراً من الجهد في سبيل تعلم الحديث أن آباءهم كانوا يحثونهم دائماً على ذلك ويعدونهم الجزاء الطيب ... وانهم يعلمون ان تعلم السنّة في حد ذاته كسب ضخم، ومع ذلك، فلا بأس من أن يزيد الكسب ويعظم الربح، مادياً وروحياً، فها هو النضر بن الحارث قال : سمعت ابراهيم بن أدهم يقول : قال لي أبي : يا بني، أطلب الحديث، فكلما سمعت حديثاً وحفظته، فلك درهم، فطلبت الحديث على هذا .

صحيح أن الطفل في هذه الحالة يتعلم الحديث لهدف الحصول على الدرهم، ولكن لا ضرر هنا على وجه الاطلاق، ذلك ان تكرار التعلم وتعويد الطفل على طلب الحديث، لا يلبث بعد فترة أن يصير عادة له، فيسعى إلى التعلم دون انتظار لدرهم. ثم ان مداركه تكون قد نضجت، فيبصر ما في السنّة من قيمة روحية، وكيف انها تعينه على الحياة الدنيا، وتهيء له الطريق السليم للآخرة .

وهذا ما حدث بالفعل، إذ سرعان ما وجدنا باب التنافس يفتح على مصراعيه، وتسابق الكثيرون على ورود منهل السنّة حتى يحظى كل فرد باكتساب شرف ذلك، فالذكي من حفظ أحاديث في كذا، والمجدّ من أسرع إلى صحابي وأخذ عنه قبل وفاته، والمفلح من حظي بحب شيخه وتمكن من الانفراد به، والكتابة عنه، والقراءة عليه، ثم العرض والتصحيح بين يديه [1].

وقد قيض الله لهذا المجتمع أساتذة أوتوا العلم والأدب وأصول التربية، ترعرعوا بين يدي رسول الله ﷺ ويدي أصحابه الكرام، واجتهد القائمون على التعليم، في تعليم تلاميذهم أو جلسائهم، واهتموا اهتماما كبيرا بالأجيال الجديدة، فهذا اسماعيل بن رجاء ــ من أقران الأعمش ــ يجمع الصبيان ويحدثهم، ومر رجل بالأعمش ــ سليمان بن مهران ــ وهو يقوم بتعليم الحديث، فقال له : تحدّث هؤلاء الصبيان ؟ فقال الاعمش : هؤلاء الصبيان يحفظون عليك دينك. وكان مطرف بن عبد الله يقول : لأنتم أحب إليَّ مجالسة من أهلي. وكان سفيان الثوري يقول : لو لم يأتوني (يعني طلاب الحديث) لأتيتهم في بيوتهم. وكانوا يعلمونهم الحديث والأدب فيه واحترامه واجلاله [2]. وكانت لحلقات العلم مكانة جليلة، وكان طلاب الحديث يوقرون أساتذتهم، ويفخرون بخدمتهم والأخذ عنهم. وكان سلوكهم مع أساتذتهم في غاية الأدب والاحترام، سواء كان هذا في التلقي عنهم أم في مناقشتهم. ويؤثر عن كثير من الصحابة والتابعين نصائح لطلاب العلم في هذا الشأن .[3].

آداب تعلم السنّة :

ولهذه الأهمية التي لمسناها للسنّة مصدراً للتربية الإسلامية، اهتم العلماء والفقهاء والمربون

---

١ ــ محمد حجاج الخطيب ، السنّة قبل التدوين: ١٥٠ .

٢ ــ ابن سعد ، الطبقات الكبرى : ٢٤٧/٧ .

٣ ــ ابن عبد ربه ، العقد الفريد: ٥٨/٢ .

الإسلاميون بوضع القواعد والمبادىء والآداب التي ينبغي أن يسير عليها كل من يبغي تعلم السنّة النبوية، وذلك حتى يؤتي تعلمه أكله، من ذلك :

١ ــ بذل الجهد في تحصيلها : فعلى قدر ما عليه هذا المبدأ من بساطة ظاهرية، إلا أنه من الناحية التربوية على قدر عال من الأهمية. ذلك انه يتضمن ضرورة توافر عنصر «الإيجابية» و«الفاعلية» من جانب الطالب، فذاك أدعى إلى حسن التعلم وجودة التحصيل. بل إن ذلك هو السبيل إلى أن تمتزج المعلومات التي يحصل عليها طالب العلم بقيمه واتجاهاته وميوله، فتكتسب مزيداً من القدرة على التأثير على سلوكه. ولهذا ركز العلماء المسلمون على ضرورة بذل الجهد في سبيل تحصيل السنّة، فقال ابن الصلاح: وإذا أخذ فيه (الحديث) فيشمر عن ساق جده واجتهاده. ونقل السيوطي عن صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : «إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » [1].

وقال يحيى بن أبي كثير : لا ينال العلم براحة الجسم. وقال الشافعي: لا يطلب هذا العلم من يطلبه بالتململ وغنى النفس فيفلح. ولكن من طلبه بذلة النفس، وضيق العيش وخدمة العلم، افلح. ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن المقصود هنا هو ان طلب العلم يؤدي إلى الإنكسار وضعف الشخصية، وإنما المقصود هو ألا يستنكف طالب العلم من بذل مختلف الجهود للوصول إلى المعرفة .

٢ ــ حسن اختيار المعلم : ولعل من أهم مميزات التربية الإسلامية حقاً من حيث التطبيق، لا مجرد الفكر والنظرية، أن المعلم لا يُفرض على الطلاب، وإنما هم الذين يختارونه، وفي ذلك تحقيق هدفين هامين : الأول : أن الطالب لن يقبل إلا على من يرتاح له ويستفيد منه، وبالتالي يتوافر العنصر الأساسي في حسن التعلم وجودة التحصيل. الثاني : إن في ذلك محك خطير للمعلمين، فمن سيقبل عليه الطلاب ستثبت أحقيته بالتعليم وجدارته بالتدريس، ومن ثم فلا يستطيع أن يثبت في الميدان المعلمون الضعفاء علماً، الأدنى خلقا .

من أجل هذا نصح العلماء طالب السنّة بالسماع من (اسند شيوخ عصره)، أي أكثر الأساتذة تخصصا وعلما وفهما للموضوع الذي يسعى طالب المعرفة الى تحصيله والاحاطة به، فيما يقول ابن الصلاح [2]، محكما في ذلك المعايير المعروفة في اختيار المعلمين، سواء في ذلك المعايير الإجتماعية أم الخُلقية ام التربوية، فاذا حصل ما يستطيع من معلم عظيم، ولم يجد بالبلدة آخر، فليرحل وراء عظماء المعلمين اينما كانوا. قال السيوطي : (ويبدأ بافرادهم، فمن تفرد بشيء، أخذه عنه أولا).

قال الخطيب، إن المقصود بالرحلة أمران : أحدهما تحصيل علو الاسناد وقدم السماع، والثاني

---

١ ــ محمد السماحي، المنهج الحديث: ٢٦٨ .

٢ ــ ابن الصلاح، علوم الحديث : ٢٢٢ .

لقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة منهم. فإذا كان الأمران موجودين في بلده، ومعدومين في غيره، فلا فائدة في الرحلة. أو موجودين في كل منهما فيحصل حديث بلده ثم يرحل. قال، وإذا عزم على الرحلة فلا يترك أحدا في بلده من الرواة إلا ويكتب عنه ما تيسر من الأحاديث، وإن قلت، فقد قال بعضهم، ضيع ورقة ولا تضيعن شيخاً [1]. ومن ذلك يتبين لنا حرص المربين الإسلاميين على قيام العلاقة المباشرة بين المتعلم والمعلم، ففرق كبير بين أن تقرأ لإنسان، وأن تسمع له. ففي قيام هذه العلاقة المباشرة، تكون المناقشة والنقد والاستيضاح، ومن ثم المزيد من الفهم والإستيعاب .

٣ ــ مداومة المذاكرة : من المعروف عن الإنسان أنه سريع النسيان، ومن ثم، فإن الاكتفاء بمجرد السماع عن المعلم لا يكفي في حد ذاته أن يحتفظ المتعلم بما تعلم، وإنما لا بد من مداومة المذاكرة بعد انتهاء الوقت المخصص للتعليم، حيث كان المعلمون يخصصون أوقاتا معينة يحددونها للطلاب، بعد صلاة الفجر مثلا حتى الضحى، أو بين الظهر والعصر. حتى إذا انتهوا من ذلك بدأوا يذاكرون ما تعلموه. وفي ذلك يقول أنس : كنا نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه الحديث، فإذا قمنا، تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه .

ومما يجب ملاحظته هنا التزام المعلم بما نسميه اليوم بالعلاقات الإنسانية. ذلك أنه لشدة حرص الطلاب على حضور حلقات تعليم الحديث، كانوا يداومون على ذلك، وبالتالي كان المعلم يعرف جميع الطلاب باسمائهم، فإذا ما تغيب أحدهم لفت ذلك انتباهه، فيسأل زملاءه عنه، بل ربما أرسل إلى المتغيب واحدا منهم ليعرف حقيقة الأمر إذا لم يكن بينهم من يعرفه .

٤ ــ التطبيق العملي : الدين المعاملة. ذلك هو الحق الذي ينبغي أن نضعه نصب أعيننا. وهذا يعني، ان ما يتعلمه الطلاب من السنّة النبوية على عظمته وقيمته التي يشق علينا أن نصل إلى الإحاطة بها جميعاً ليست هدفاً في حد ذاته، وإنما الغرض من تعلمها، أن نغير من سلوكنا، ولن يتم هذا إلا بالتطبيق العملي لما نتعلمه. فقد روي عن العبد الصالح بشر بن الحارث الحافي أنه قال : يا أصحاب الحديث، أدوا زكاة هذا الحديث، اعملوا من كل مائتي حديث بخمسة أحاديث [2].
وقال السيوطي : وقال ابراهيم بن اسماعيل بن مجمع : كنا نستعين على ضبط الحديث بالعمل به [3].

٥ ــ التزام الدقة والحرص فيما يتعلم : ذلك لأن محبة تعلم السنّة تدفع المتعلم إلى السعي وراء مظانها المختلفة. وهنا فمن المحتمل أن يقع الطالب في خطأ غير هين، وهو أن يتعلم أحاديث لا تتوافر فيها

---

١ ــ السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي : ١٤٢/٢
٢ ــ السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي : ٢٧١
٣ ــ ابن الصلاح ، علوم الحديث : ٢٢٣ .

الشروط والمواصفات المتفق عليها، ومن هنا قال ابن الصلاح : ولا يحملنه الحرص والشدة على التساهل في السماع والتحمل والاخلال بما يشترط عليه في ذلك. وقال السيوطي، فإن شهوة السماع لا تنتهي وتهمة الطالب لا تنقضي، والعلم كالبحار التي يتعذر كيلها، والمعادن التي لا ينقطع نيلها .

٦ ــ تقدير المعلمين واحترامهم : وتلك نتيجة منطقية للمبدأ السابق بيانه من أن الطالب هو الذي يختار (الأستاذ). إذ إن هذا يؤدي بطبيعة الحال إلى أن يحظى المعلم بحب تلاميذه وتقديرهم واحترامهم، وذلك مبدأ أساسي في التعلم والتعليم، لأن الإنسان عادة لا يتعلم إلا ما يشعر بقيمته، وإذا فقد المعلم تقدير تلاميذه واحترامهم قل شعورهم بأهمية ما يعلمهم إياه ، وفي ذلك قال ابن الصلاح : وليعظم شيخه ومن يسمع منه، فذلك من إجلال الحديث والعلم، ولا يثقل عليه ولا يطول بحيث يضجره، فإنه يخشى على فاعل ذلك أن يحرم الانتفاع .

وبلغ حرص طلاب السنّة على مشاعر الأساتذة والمعلمين واحترامهم أن ابن عباس، وهو ما عليه مما نعلمه من القرابة لرسول الله، أنه كان يذهب إلى من عنده علم السنّة ويظل منتظرا بباب المنزل، حتى دون أن يطرق الباب، إلى أن تتيح الفرصة للعالم أن يشعر به فيدعوه للدخول .

ويدخل في باب الاحترام والتقدير ما ينصح به علي بن أبي طالب « ألا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشين له سرا، ولا تغتابن عنده أحدا، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره، وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم لخدمته » [1].

ويلفت نظرنا في هذا النص الهام لعلي بن أبي طالب، ان احترام التعليم وتقديره لا يعني بأي حال من الأحوال أن يلجأ الطلاب إلى تلك الوسائل والأساليب التي تشيع فيها روح التملق والنفاق، فتملق المعلم لا يعني احترامه ... لكن هذا أيضا لا يعني أن يتباعد الطلاب عن أستاذهم، فلا يقدمون له يد العون فيما قد يكون بحاجة إليه... ولا شك أن بين هذا وذاك شعرة دقيقة ... بين تملق الأستاذ وبين خدمته، وذلك يرجع إلى حسن تقدير كلا الطرفين .

قال البخاري : ما رأيت أحداً أوقر للمحدثين من يحيى بن معين. وفي الحديث « تواضعوا لمن تعلمون منه »، رواه البيهقي مرفوعاً من حديث لأبي هريرة وضعفه، وقال الصحيح وقفه على عمر، وأورد في الباب حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً : ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا. قال : سمعت السلف يقولون : من لا يعرف لأستاذه لا يفلح (ويتحرى رضاه) ويحذر سخطه (ولا يطول عليه بحيث يضجره) بل يقنع بما يحدثه به، فإن

---

١ ــ ابن الصلاح ، علوم الحديث : ٢٧٤.

الاضجار يغير الإفهام ويفسد الأخلاق ويحيل الطباع، وروي عن ابن سيرين أنه سأله رجل عن حديث، وقد أراد أن يقوم، فقال : إنك إن كلفتني ما لم أُطق، ساءك ما سرك مني من خلق [1].

٧ ــ إشاعة ما يتعلمه الطالب : وذلك مبدأ آخر من المبادىء التربوية الهامة، وإن كنا قد أشرنا إليه من قبل في بيان الجوانب التربوية، وهذا في حد ذاته فيه دلالة على أهمية الموضوع ما دام العلماء المسلمون يكررونه ويلحون عليه في مناسبات مختلفة. ولعمري فهذا ما يمكن أن نطلق عليه بمصطلحات عصرنا الحاضر (جماهيرية العلم) و(شعبيته)، بمعنى ألا يقتصر على قلة تحتكر العلم وتدعى به الرفعة والسمو بين الناس يصيرون به (ارستقراطية) ولو أنها ليست في منزلة غيرها من صور الإرستقراطية المرذولة، إلا انها (مكروهة) على أية حال. ومن ثم فإن طالب السنّة مطالب بألا يتكتم ما تعلم، بل لا بد من إذاعته ونشره حتى تعم الفائدة، قال في ذلك ابن الصلاح : « ومن ظفر من الطلبة بسماع شيخه فكتمه عن غيره لينفرد عنهم كان جديرا بالا ينتفع به، وذلك من اللؤم الذي يقع فيه جهالة الطلبة الوضعاء، ومن أول فائدة طلب الحديث .. الإفادة » .

وروي أيضا عن مالك أنه قال : من بركة الحديث، إفادة بعضهم بعضا. وروي كذلك عن اسحق بن ابراهيم بن راهويه أنه قال لبعض من سمع منه في جماعة : انسخ من كتابهم ما قد قرأت، فقال : انهم لا يمكنونني، قال : إذا ــ والله ــ لا يفلحون . قد رأينا أقواما منعوا هذا السماع، فوالله ما أفلحوا ولا نجحوا ،[2] وروي عن ابن عبد البّر قال : عن داود عمرو بن زهير العنبي قال : سمعت فضيل بن عياض يقول : أول العلم، الإنصات، ثم الاستماع، ثم الحفظ، ثم العمل ثم النشر .

وقال ابن المبارك : من بخل بالعلم ابتلى بثلاث : إما أن يموت فيذهب علمه، أو ينسى، أو يتبع السلطان. وروى الخطيب في ذلك بسنده عن ابن عباس رفعه : إخواني. تناصحوا في العلم، ولا يكتم بعضكم بعضاً فإن خيانة الرجل في علمه أشد من خيانته في ماله [3].

---

١ ــ السيوطي ، تدريب الراوي، شرح تقريب النووي : ٢٤٨ هامش (١).

٢ ــ ابن الصلاح ، علوم الحديث : ٢٧٦ .

٣ ــ قال ابن الجوزي، موضوع، تفرد به عبد القدوس بن حبيب عن عكرمة، وتعقبه السيوطي بأن له طرقاً أخرى عن ابن عباس، فأخرجه الطبراني من طريق أبي سعد عن عكرمة عن ابن عباس. قال الهيثمي : رجاله موثوقون وأبو سعد هو البقال : سعد بن المرزبان، صدوق مدلس. وأخرجه أبو نعيم في الحلية برجال اختلف في توثيقهم، كما ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ، السيوطي، تدريب الراوي: ٣٤٩ .

٨ ــ دراسة أسباب الحديث : وهذا مماثل لما سبق أن ذكرناه بالنسبة لتعلم القرآن وتعليمه، فدراسة الأسباب التي قيل فيها الحديث تربطه بالخبرة التي هي أصله، وتصله بالضرورة إلى حسن العمل به وهو هدفه، وبذلك تتوثق الروابط والصلات بين المعرفة والخبرة والمستقبل، فما من حديث إلا وقيل لمناسبة، وما من حديث إلا وقد قيل حلا لمشكلة وإزالة لغموض في موقف .

٩ ــ حسن الفهم : وفي هذا المبدأ رد واضح على هؤلاء الذين تقولوا على التربية الإسلامية فزعموا أن عنايتها بالحفظ والاستظهار أكثر مما هي موجهة إلى الفهم والإدراك، فقد أكد بعض العلماء ضرورة فهم الحديث، وإدراك مراميه وأهدافه ، وفي الالحاح على ضرورة معرفة أسباب الحديث والظروف التي أحاطت به سبيل هام من سبل فهمه. وكذلك في إلحاحهم على ضرورة العمل بما نعلم تأكيد على أهمية الفهم والوعي لأنه يستحيل أن ننفذ ونطبق ما لم نع وندرك .

ومن حسن فهم الحديث ــ بطبيعة الحال ــ دراسة درجة الحديث ومصادر اسناده ومعانيه وجوانبه اللغوية. وينقل لنا ابن الصلاح في أهمية الفهم والوعي لما نتعلمه من الحديث قول الأديب الفضل فارس بن الحسين [1].

يا طالب العلـــم الـــذي ذهـــبت بعدتـــه الروايـــة
كن في الروايـــة ذا العنـــا يـة بالروايـــة والدرايـــة
وارو القليـــل وراعـــه فالعلـــم ليس له نهايـــة

١٠ ــ التعلم لا يقوم على الحياء أو التكبر : وهذا المبدأ يقوم على حقيقة تربوية هامة وهي أن الإنسان يظل ــ الى ان يتوفاه الله ــ ساعيا للحصول على المعرفة، أو بمعنى آخر، فالإنسان لا تزول عنه صفة (التلمذة)، إذا ما انتهى من مراحل التعليم الرسمية. صحيح أنه قد يقف موقف المعلم والأستاذ، في كثير من المواقف، ولكن حياته لا تخلو أبداً من مواقف لا بد أن يكون فيها تلميذا. وعلى ذلك فإن هؤلاء الذين يتصورون أنهم قد حصلوا خاتمة العلم هم الذين يشعرون بالكبر والضيق إذا ما تعرضوا لموقف تعليمي يفترض أن يعلمهم فيه أحد، وبخاصة إذا كان صغير السن، قال ابن الصلاح : ولا يكن ممن يمنعه الحياء او الكبر عن كثير من الطلب. وقد روي عن مجاهد أنه قال : لا يتعلم مستحي ولا مستكبر. وأيضا عن عمر بن الخطاب وابنه رضي الله عنهما أنهما قالا : من رق وجهه رق علمه، وقال «وكيع» : لا ينبل الرجل من أصحاب الحديث حتى يكتب عمن هو فوقه وعمن هو مثله، وعمن هو دونه. وكان ابن المبارك يكتب عمن هو دونه فقيل له عن ذلك: وكيف يكون ؟ فقال : لعل الكلمة التي فيها نجاتي لم تقع لي . وروى البيهقي عن الأصمعي أنه قال : من لم يحتمل ذل التعليم ساعة، بقي في ذلك الجهل أبداً . [2].

---

١ ــ ابن الصلاح ، علوم الحديث : ٢٢٤ .
٢ ــ نفسه : ٢٧٦ .

ثبت المصادر والمراجع

١ ــ ابراهيم اللبان
الأسرة الاسلامية ، القاهرة ، مجمع البحوث الاسلامية : ١٩٦٧م.

٢ ــ أحمد أمين وآخرون
قصة الفلسفة الفلسفة اليونانية ، دار المعارف ، القاهرة : ١٩٥٦م.

٣ ــ أحمد الحوفي
الأمي والأميون : ما معنى كلمة أمي في القرآن الكريم ، مقالة في مجلة منار الاسلام ، أبوظبي ، العدد (١١) ذي القعدة ١٣٩٦ هـ ، يونيو ١٩٧٦م.

٤ ــ الاسلام والثقافة ، الكويت ، مجلة الوعي الاسلامي ، العدد (١٤٩) جمادى الأولى ١٣٩٧هـ ، مايو ١٩٧٧م.

٥ ــ أحمد عبد الواحد البسيوني
صلة الرحم ، الكويت ، مجلة الوعي الاسلامي ، العدد (١٤٦) صفر ١٣٩٧ هـ ، فبراير ١٩٧٧م.

٦ ـ أحمد عمر هاشم
المنهج النبوي في تعليم المسلمين ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، سلسلة كتب الاسلامية ، العدد (١٥٨) ، يونيو ١٩٧٤م.

٧ ــ أحمد محمد العسال
الاسلام وبناء المجتمع ، الكويت ، دار القلم : ١٩٧٥م.

٨ ــ الامام البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ــ ٢٥٦ هـ
الجامع الصحيح (صحيح البخاري) ، طبعة بولاق : ١٣١٣ هـ / ١٨٩٣م.

٩ ــ بدران أبو العينين
أصول الفقه ، القاهرة ، دار المعارف : ١٩٦٥م.

١٠ ــ ابن حجر ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ــ ٨٥٢ هـ
فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة : ١٩٥٩م.

١١ ــ زكريا البري
أصول الفقه الاسلامي ، القاهرة ، النهضة العربية : ١٩٧١م.

١٢ ــ الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ــ ٥٣٨ هـ.
الفائق في غريب الحديث ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة : ١٩٦٩م.

١٣ ــ ابن سعد ، أبو عبد الله بن محمد بن سعد كاتب الواقدي ــ ٢٣٠ هـ
كتاب الطبقات الكبرى ، القاهرة ، مطبعة لجنة نشر الثقافة : ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩م.

١٤ ــ سعيد اسماعيل علي
أصول التربية الاسلامية ، القاهرة ، دار الثقافة : ١٩٧٨م.
١٥ ــ سيد أحمد عثمان
المسؤولية الاجتماعية في الاسلام ، الكتاب السنوي في التربية وعلم النفس ، القاهرة، عالم الكتب : ١٩٧٣م.
١٦ ــ السيوطي ، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال ــ ٩١١ هـ
تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، حققه عبد الوهاب عبد اللطيف، المدينة المنورة، المكتبة العلمية : ١٩٥٩م.
١٧ ــ الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن ادريس : ٢٠٤ هـ.
الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ، مطبعة البابي الحلبي : ١٩٤٠م.
١٨ ــ ابن الصلاح ، تقي الدين أبو عمر وعثمان بن عبد الرحمن ــ ٦٤٣ هـ.
علوم الحديث، تحقيق نور الدين عتر ، المدينة المنورة ، المكتبة العلمية : ١٩٦٦م.
١٩ ــ عائشة عبد الرحمن
الشخصية الاسلامية ، بيروت ، دار العلم للملايين : ١٩٨٣ م.
٢٠ ــ ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد القرطبي الاندلسي ــ ٣٢٨ هـ
العقد الفريد ، تحقيق وشرح أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الأبياري وعبد السلام هارون، الطبعة الثالثة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر : ١٩٦٥م.
٢١ ــ عبد الرحمن الكواكبي
طبائع الاستبداد ، ضمن الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة : ١٩٧٠م.
٢٢ ــ عبد الرحمن الميداني
أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها ، مكة ، الطبعة الأولى.
٢٣ ــ عبد الوهاب خلاف
علم أصول الفقه ، الكويت ، دار القلم : ١٩٧٠م.
٢٤ ــ علي حسب الله
أصول التشريع الاسلامي ، القاهرة ، دار المعارف : ١٩٥٩م
٢٥ ــ علي عبد العظيم
فلسفة المعرفة في القرآن الكريم ، تقديم محمد عبد الرحمن بيصار ، مجمع البحوث الاسلامية ، القاهرة ، سلسلة البحوث الاسلامية ، العدد (٦٥) : ١٩٧٣م.
٢٦ ــ الفيومي ، أبو العباس أحمد بن محمد ــ ٧٧٠ هـ
المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، القاهرة ، المطبعة الخيرية : ١٨٨٧م.

٢٧ ــ محمـد أبو زهـرة
المجتمع الانساني في ظل الاسلام ، بيروت دار الفكر : ١٩٧٠ م.
٢٨ ــ محمـد المجـذوب
الترف وأثره في مصائر الأمم ، الكويت ، مجلة الوعي الاسلامي ، العدد (١٥٠) ، جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ، يونيه ١٩٧٧م.
٢٩ ــ محمد السمـاحي
المنهج الحديث في علوم الحديث ، مطبعة الأزهر ، القاهرة : ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨م.
٣٠ ــ محمد زكريا البرديسي
أصول الفقه ، القاهرة ، النهضة العربية : ١٩٧١م.
٣١ ــ محمد عجاج الخطيب
السنّة قبل التدوين ، بيروت ، دار الفكر : ١٩٧١م.
٣٢ ــ محمد قطـب
ــ الانسان بين المادية والاسلام ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية : ١٩٦٥م.
ــ منهج التربية الاسلامية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، دار القلم.
٣٣ ــ محمـد كامـل حتـه
القيم الدينية والمجتمع ، القاهرة ، دار المعارف، سلسلة اقرأ : ١٩٧٤م.
٣٤ ــ محمد مصطفى الزحيلي
منهج الاسلام في تربية الأبناء ، أبو ظبي، مجلة منار الاسلام، العدد العاشر، شوال ١٣٩٦ هـ، اكتوبر ١٩٧٦م.
٣٥ ــ محمد الهادي عفيفي
في أصول التربية، الأصول الفلسفية ، القاهرة ، الانجلومصرية : ١٩٧٤م.
٣٦ ــ محمـود شلتـوت
ــ الاسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق ، الطبعة الخامسة.
ــ من توجيهات الاسلام ، القاهرة ، دار الشروق (د.ت).
٣٧ ــ الامام مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ــ ٢٦١ هـ.
الجامع الصحيح (صحيح مسلم) بشرح النواوي ، ١٧ جزءاً ، المطبعة المصرية الأزهرية : ١٩٢٩م.
٣٨ ــ مصطفى أحمد الزرقا
في الحديث النبوي ، دمشق ، مطبعة الجامعة السورية : ١٩٥٦ م.
٣٩ ــ المنذري، زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي ــ ٦٥٦ هـ.
الترغيب والترهيب ، القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي : ١٩٥٤م.

٤٠ ــ ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام ــ ٢١٨ هـ
سيرة رسول الله (السيرة النبوية) ، حققها وشرحها : مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية : ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦م.
٤١ ــ يوسف عبد الهادي الشال
الاسلام وبناء المجتمع الفاضل، القاهرة ، مجمع البحوث الاسلامية، سلسلة البحوث الاسلامية، العدد (٦٠) ، ديسمبر ١٩٧٢م.

تعليق الدكتور ابراهيم زيد الكيلاني *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي المعلم،والرحمة المهداة، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين،والتابعين باحسان إلى يوم الدين، وبعد .

فأحب ــ بين يدي مناقشتي لهذا البحث ــ أن أشيد بجهد الباحث المشكور في حسن عرضه للمفاهيم الإسلامية والقيم الإيمانية بلغة العصر، وفي إغنائه لبحثه بما كتبه صفوة من العلماء والباحثين في العقود الأخيرة من هذا القرن. فله على ذلك كريم الجزاء وحسن الثواب .

ومع تقديري لهذا البحث وصاحبه العالم المفضال الدكتور سعيد إسماعيل، إلا أن لي نوعين من الملاحظات عليه :

أ ــ ملاحظات شكلية تتعلق ببعض الهنات اللغوية والطباعية .

ب ــ وملاحظات موضوعية .

أ ــ أما الملاحظات الشكلية فهي :

الأخطاء	الصواب
١ ــ اجماع الصحافة حياته ﷺ (ص ٨)	اجماع الصحابة....
٢ ــ وأحسن للفرج (ص ٩)	وأحصن للفرج .
٣ ــ تبا وبوارا للذين يهملون أبناؤهم (ص ١٢)	للذين يهملون أبناءهم .
٤ ــ اني نحلت هذا غلاما (ص ١٢)	اني نحلت ابني هذا غلاما (مسلم جـ ١١، ص ٦٥)
٥ ــ العلاقات العائلية (ص ١٤)	العلاقات الأسرية فالعائل هو الفقير .
٦ ــ ويستخرج الخبيء (ص ١٥)	يستخرج الخبء .
٧ ــ اتخذ الناس رؤساء (ص ١٧)	اتخذ الناس رؤوسا جهالا .
٨ ــ النذر اليسير (ص ١٩)	النزر اليسير .

* عميد كلية الشريعة : الجامعة الأردنية.

٩ ــ مسائل وقضايا التربية والتعليم	مسائل التربية والتعليم وقضاياها .
١٠ ــ السنّة كمصدر للتربية والتعليم	السنّة مصدر للتربية .
١١ ــ نصر الله امرىء (ص ٧)	نصر الله امرأ .
١٢ ــ الزاني الحصن (ص ٣)	الزاني المحصن .

... وأخطاء قريبة مشابهة لهذه[1].

ب ــ وأما الملاحظات الموضوعية، فهي :

أولا : لم يلتزم الكاتب بمنهجه الذي ذكره في بداية بحثه بقوله : « ونحب أن ننبه بداية أننا اقتصرنا على صحيحي البخاري ومسلم لبيان موقف الرسول ﷺ مما عرضنا من مسائل وقضايا ». ص (١) .

فقد خرج الباحث عما التزم به .. وذكر أحاديث لم يوردها الشيخان .. وتعداها إلى حديث موضوع وضعيف، وارتكب مخالفات منهجية في نسبة القول لرسول الله ﷺ .

ففي ص (٤٩) يذكر : « وروى الخطيب بسنده عن ابن عباس رفعه، اخواني : تناصحوا في العلم، ولا يكتم بعضكم بعضا، فان خيانه الرجل في علمه أشد من خيانته في ماله ». ويذكر كاتب البحث في الهامش رقم ١٩٢ : حكم الجوزي عليه بأنه موضوع ، ومقالة السيوطي وغيره ، واختلافهم في توثيق روايته. والحديث كما ترون ليس عليه أنوار النبوة ولا أسلوبها .

وفي ص (١٥) يطلع علينا الباحث بنهج جديد في الاستشهاد بالحديث النبوي إذ لا يعزو الحديث إلى أحد كتب السنن المعروفة وانما يقول وهذه عبارته : « فقد قيل **في الأدب النبوي أن لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته** »، ومرجعه في ذلك كتاب من سلسلة إقرأ عنوانه « القيم الدينية والمجتمع » للسيد محمد كامل حتة .

ثانيا : كنت آمل من الباحث وعنوان بحثه « السنّة النبوية مصدراً للتربية الإسلامية » أن يرجع إلى مصادر السنّة الستة، والمسانيد، ويقدم لنا حصيلتها في هذا الموضوع العظيم، لأن الأحاديث الصحيحة ليست محصورة في الصحيحين، وإذا خرج الباحث عن منهجه، فالأولى أن يتتبع الأحاديث في مجال التربية في نص كتب السنّة. فروى مرات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة عن أبي داود والترمذي والطبراني، ولم يبين في أكثر رواياته هذه جزءاً ولا صفحة. فكان أولى

---

١ ــ تم تصحيح هذه الاخطاء اثناء الطباعة ما عدا رقم ٧ لوروده كما ذكر في البحث الاصلي. (المحرر) .

ببحث عنوانه:(السنّة مصدراً للتربية) أن يكون أكثر استيعاباً وشمولاً لمصادر السنّة، وأكثر في الدلالة على المراجع .

ثالثا : وكنت آمل من الباحث الفاضل ــ وقد رجع إلى أكثر من ثلاثين مرجعاً من المراجع الحديثة ــ أن يرجع إلى أمهات كتب التراث ويتصل بكنوزها، فللبخاري شروحه، ولمسلم شروحه ولكتب السنّة الأخرى شروحها، وللعلماء استنباطات موفقة من هذه المصادر. وللأمانة فقد رجع الباحث مرة واحدة إلى شرح النووي لصحيح مسلم، وان انقطاع الباحث المسلم عن كتب التراث يشكل في الحقيقة خطراً ثقافياً ينقطع بهذا الجيل عن مصادر انتمائه وحضارته وتراثه، وإن علماء التربية جديرون بقيادة السفينة وخوض بحار المعرفة واصطياد اللآلىء والجواهر من تراثنا العظيم. وأذكر مثالا على هذا فيما أورده الكاتب ص (١٦) شاهداً على التنويه بالعقل والإشادة به من كلام سقراط، وكان يمكن أن يستشهد للفكرة نفسها بما أورده الإمام الغزالي في رسالة « أيها الولد » من ربط بين الإيمان والعلم والعمل : « العملُ بلا علم لا يكون والعلم بلا عمل جنون »، وأتى بالأمثلة التربوية شاهدا على فكرته.

رابعا : بيّن الكاتب ــ بشيء من التفصيل ــ حفاوة الإسلام بالعقل تحت عنوان : « المعرفة طريق السواء » ونقل فقرات من افتتاحية الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار :

« إن أجلّ ما يتميز به الإسلام حفاوته بالعقل وتقديره لحركته ...» ثم نقل عن سقراط ... ونسب للنبي ﷺ قول : « دعامة المؤمن عقله ». وكنت أرجو أن ينهج غير هذا النهج في بيان حفاوة الإسلام بالعقل، من خلال آيات القرآن الكريم الكثيرة في هذا الموطن، وأحاديث رسول الله ﷺ. وكنت أفضل مثلا أن يصلنا الباحث بعناوين الأبواب لكتاب العلم التي تخيرها الإمام البخاري في صحيحه لأبواب هذا الكتاب، ليرينا منهجية الإمام البخاري في أصح كتب السنّة، وحسن تتبعه لهدي النبي الكريم في بيان فضل العلم والتحول بالموعظة، وطريقته ﷺ في التعليم والتوجيه .

خامسا: مناقشة لبعض الأفكار التي أوردها المؤلف :

ذكر المؤلف في (ص ٩) : « من أول ما تجب مراعاته قبل الإقدام على الزواج أن يتعرف الطرفان كلاهما على صاحبه، فلا يتركان للمصادفة ». ثم لم يبين لنا الكاتب كيف يتم هذا التعارف: أهو على الطريقة الغربية الشائعة للأسف في كثير من بلاد المسلمين .. أم على الطريقة الاسلامية، أم غير ذلك.

ثم يقول « واذا تم تعرّف أحد الطرفين على صاحبه فإن الرسول يُوصي بعد ذلك بخطوة ثانية

وهي الخِطبة خطوة الاختيار عن طريق الحس، مشاهدةً واستماعاً يرى وجهها ويديها ويستمع إلى حديثها ».. والمعروف شرعاً أن الخطبة هي مُخاطبة المرأة أو ولي أمرها بطلب الزواج منها والتعارف يكون قبلها .

والذي يبدو أن الباحث لم يفرق بين ما يتم قبل الخِطبة من تعارف، وبين الخِطبة التي تعني طلب الزواج من المرأة .

سادسا : تحت عنوان : « تربية الابناء »، بدأ الباحث حديثه بأن ما يلقاه الأطفال من سوء المعاملة من الأب والأم له أكبر الأثر في كثير من انحرافات الشخصية وأمراضها... ولي على هذه النقطة الملاحظات التالية :

١ ــ كان الأولى أن يبدأ حديثه بذكر القواعد التي أرساها الإسلام للتربية الصالحة ، وقد ذكرها الكاتب بعد ذلك مُفرقة، ومنها تَربية الأبناء على الإيمان وقيمه، والعبادة، والأخلاق الصالحة...

٢ ــ ويبدو لي أن الكاتب لو وضع تصوراً لمنهجية السنّة في تربية الإنسان الصالح من خلال تتبعه للأحاديث الواردة في هذا الشأن، ثم أورد هذه الأحاديث في أماكنها من هذه المنهج، لكان أولى من هذا العرض الذي يبدو أنه مُرتجل، يورد فيه الباحث الأحاديث المتفرقة، ثم يذكر دلالاتها دون ترابط أو تنسيق، تقتضيه منهجية محددة .

٣ ــ ومن الغريب ألّا يذكر الباحث مما يلقاه الأطفال من سوء المعاملة من الأب والأم إلّا التمييز في العطايا .

٤ ــ ومن المعروف أن هناك أموراً في تربية الأبناء أكبر من ذلك، وهي تتعلق ببناء العقيدة والأخلاق والقيم، والعادات الكريمة، ولعل الذي أوقع الباحث في هذا حرصه على الاستشهاد بالحديث الوارد في هذا المعنى .

٥ ــ ومن العجب أن يستشهد الباحث على تحريم الإسلام على التمييز بين الأبناء بحديثين أحدهما قوله ﷺ : « ما من مولود إلّا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ... » (ص ١٢)، وكان الأولى أن يستشهد بهذا الحديث على مسؤولية الوالدين عن دين الطفل وأخلاقه وحسن تربيته في مقدمة حديثه عن تربية الأبناء.

سابعا : ذكر الكاتب مشكورا (ص ١١ ــ ١٥) بعض الأخلاق والقيم الإسلامية في تربية الأبناء وتقوية روابط الأسرة . ففي (ص ١٥) تحدث عن حفاوة الإسلام بالعقل واهتمامه بالعلم والمعرفة .

وفي (ص ١٩) يعود للحديث عن التربية الخلقية، وأن التربية من أولها إلى آخرها تقوم على قيم خلقية، وأن المدرسة مؤسسة خلقية، وتعليمية، ويذكر بعد ذلك بعض الأحاديث الواردة في حسن الخلق. ويفصل في بعض الأخلاق الإيجابية والسلبية (ص ٢١ ــ ٢٢) مثل الصبر، والنميمة، والحياء، والغيبة، وغض البصر، والصدق، والكذب، والنفاق، والرفق بالحيوان .

ويلاحظ أن الباحث قد ترك الحديث عن قيم أخلاق كثيرة لها أكبر الأثر في بناء شخصية الطفل، منها حب الله ورسوله وجماعة المؤمنين، وحب الوطن والدفاع عنه، والتوبة وأثرها في معالجة الأخطاء وإصلاح الحياة. وبث روح الأمل، والبعد عن التيئيس والتقنيط، وقيمة الوقت وحسن استغلاله، وغرس معاني العزة والاستقلالية وعدم التقليد الأعمى ... وما أحوجنا إلى هذه الأخلاق، ومجتمعاتنا تواجه هجمة ثقافية غربية تستهدف العقائد والأخلاق والفرد والأسرة والمجتمع .

وأذكر على سبيل المثال : ــ

١ ــ كيف نحصن أبناءنا من الأخلاق الذميمة، كالحسد والافتراء والقذف، والعقوق والتخاذل، والاستخذاء .

٢ ــ كيف نحصن أبناءنا من الخرافة والشعوذة والتنجيم والسحر، وما شابهها من قراءة الحظوظ على صفحات الجرائد .

٣ ــ كيف نحررهم من الأنانية والفهلوة وسبق الصفوف بدون حق، والعصبية والاقليمية والطائفية .

٤ ــ كيف نعالج هموم أبنائنا بالاسلوب الحميد مبتعدين عن الكبت والاكراه والتخويف..

ثامنـــا : كنت أرجو من الباحث أن يوضح بشكل متكامل :

دور مجتمع الرفاق في تربية الطفل .

دور المسجد والمدرسة .

دور المؤسسات الإعلامية إضافة لدور الأسرة في بناء العقل وتربيته .
حتى تتعاون هذه الأجهزة وتتكامل ولا يهدم بعضها جهود بعض .

تاسعا : ختم الباحث بحثه بالحديث عن الواقعية والضبط الجنسي، والمسؤولية الاجتماعية، والقيادة والتوجيه. وكنت آمل أن يتحدث الكاتب من خلالها عن خلق العفّة الذي يميز الحضارة الإسلامية عن الحضارات الأخرى، والسبل التي سلكها الإسلام لتربية أبنائنا عليها داخل الأسرة وخارجها . ورسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإسلامي، وسلطان الرأي العام في التربية والإصلاح. ودور الدولة ومؤسساتها في رعاية هذه القيم وتربية الأجيال

عليها. وكتب السنة غنية في هذه المجالات .

هذه بعض الملاحظات وأرجو أن يأخذ الباحث ما يراه منها لاستكمال بحثه القيّم .
جزاه الله خير الجزاء، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تعليق الدكتور عبد القادر الرباعي *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة :

لا يستطيع أي مُطلع منصف إلا أن يسجل إعجابه بهذا الجهد الكبير الذي بذله الدكتور سعيد اسماعيل علي،في بحثه القيم الذي جمع فيه ما تقدمه السنّة النبوية من مناهج تربوية تعزز القيم الإنسانية ، وتكثر أسباب الخير على الأرض،حتى يعيش الناس الذين يأخذون بها حياة متوازنة فيها الأمان والاطمئنان .

لكن إعجاب المطلع على جهد الدكتور سعيد، المتمثل في تتبع أقوال المصطفى وتصنيفها وتحليلها تربوياً، لا يحول دون إبداء ملاحظات قد يغني بها البحث وتتطور أفكاره، إن وجدها الباحث الفاضل ملاحظات صائبة، أو قد تتعزز ثقته فيما طرح من آراء وأفكار، إن رأي أنها ملاحظات تجانب الصواب .

وحسبي هنا أن أبدي ملاحظات أوحيإليَّ بها هذا البحث القيم ، تاركاً مسألة الحكم على صوابها أو خطئها للباحث الفاضل نفسه .

أولى الملاحظات على العنوان :

لن أتوقف طويلًا عند التجاوز اللغوي في العنوان، فنحن لغوياً، لا نقول : السنّة النبوية كمصدر للتربية الإسلامية، ولكننا نقول : السنّة النبوية مصدراً للتربية الإسلامية .

إن هذا التجاوز اللغوي خطأ شائع وقد وقع في العربية بتأثير الترجمات الخاطئة. وهو على أية حال، ليس الذي يستوقفني هنا، لكن الذي يستوقفني أمر آخر أكثر ارتباطاً بمسألة التربية منه بمسألة اللغة .

إن من يقرأ العنوان، بالكيفية التي جاء عليها البحث، يظن أن هم الباحث الفاضل هو إثبات أهلية

---

* مدير مركز الدراسات الاسلامية ــ جامعة اليرموك.

السنّة لأن تكون مصدراً للتربية الإسلامية. والحقيقة أن هذه الأهلية بدهية لم يكن هم الباحث إثباتها ، فقد انطلق من الاعتقاد بها حين قال: « والسنّة هي الأصل الثاني من أصول التربية الإسلامية ، فالقرآن مقدم وهي تالية له »، ولكن همه في البحث انصرف إلى مناهج السنّة وأساليبها في التربية، وهذا يعني أن عنواناً آخر كان يمكن أن يختار للبحث حتى ينطبق عليه محتواه، كان من الممكن أن يكون عنوان البحث مثلًا : « منهج السنّة النبوية في التربية الإسلامية ». فلو اختير مثل هذا العنوان لدل على المضمون الذي عالجه البحث من جهة، ولانسجم من جهة أخرى مع المحور الدقيق الذي اختير للندوة كلها « السنّة النبوية ومنهجها في بناء المعرفة والحضارة .

وثاني الملاحظات ترتبط بمجموع القضايا المُثارة في البحث :

كان الباحث الفاضل قد ناقش أهم الجوانب التربوية في السنّة النبوية في كتابين له: أولهما : أصول التربية الإسلامية ، الصادر عن دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة عام ١٩٧٨ ص ٥٧ ــ ١٠٢ . وثانيهما : نشأة التربية الإسلامية، الصادر عن عالم الكتب بالقاهرة عام ١٩٧٨ أيضاً ص ١٧٩ ــ ١٨٦ .

وكان قد تناول في الكتاب الأول جوانب تفصيلية اشتملت على : الدعوة إلى طلب العلم، وتبني الطريقة العلمية في التعليم، والهدف التربوي للسنّة الذي كان قائماً على الوعي لا المعجزات، وحض الرسول ﷺ على ممارسة التعليم، وأهمية القدوة في التربية، والرفق بالمتعلمين، وتقدير العلماء، وتربية النساء، والتربية الجسمية، هذا بالاضافة إلى مقدمة تناول فيها تعريف السنّة والحديث والخبر والأثر وأنواع السنّة ومنزلتها بالنسبة للقرآن ووجوب العمل بها، وخاتمةٍ جعلها في تعليم السنّة وآداب تعلمها .

أما الكتاب الثاني، فقد أوجز فيه المسألة وجعلها تحت عنوان : **التطبيق النبوي للتربية الإسلامية** ، منطلقاً من الصفات التي منحها الله تعالى نبيه الكريم حتى يكون معلماً للناس جميعاً، كإتيانه جوامع الكلم، وفصل الخطاب، والقدرة على تقريب الأفكار المجردة بصورة ملموسة، والحث على العمل، وبث روح الأمل والتفاؤل في الناس، والدعوة إلى الفهم العميق لروح الإسلام ومنهجه الأخلاقي، وقيمه السامية .

أما بحثه هذا،فكانت الجوانب التربوية المثارة فيه شاملة للمناخ الأسري وأهميته في بناء الأسرة، ثم المعرفة طريق السواء، والتربية الخلقية، والتربية الجسمية والواقعية، والضبط الجنسي، والمسؤولية الاجتماعية، والقيادة والتوجيه، والترف المخرب للشخصية السوية، بالإضافة إلى ما ذكره في المقدمة من تعريف لمعنى السنّة ومنزلتها بالنسبة للقرآن، ووجوب العمل بها، وما ذكره في الخاتمة من تعليم السنّة وآداب تعلمها. وهو في كل من المقدمة والخاتمة ينقل حرفياً عن كتابه الأول .

كان ما عالجه من جوانب تربوية في كتابيه الآنفين واضح الهدف، مترابط المسائل إلى حد كبير، لكن الجوانب التي اختارها في بحثه الذي بين أيدينا غير واضحة الهدف، وغير مترابطة المسائل .

إذا حذفنا ما جاء في المقدمة والخاتمة (وخير للبحث أن يُحذف ما جاء فيهما، فهو ــ فضلًا عن أنه منقول بالكلمة من كتاب الباحث الفاضل : أصول التربية الإسلامية ــ يعالج أموراً مقررة معروفة وخارج الإطار التربوي ، أقول : إذا حذفنا ما جاء في المقدمة والخاتمة فإننا نتساءل عن السبب الذي جعله يختار الجوانب التسعة السابقة الذكر ويعالجها تحت عنوان : الجوانب التربوية للسنّة النبوية :

هل هي شاملة لكل الجوانب التربوية للسنّة المحمدية ؟ .
هل جاءت مستندة إلى حقائق تشمل كل المسائل الأساسية في التربية ؟ .
هل روعي فيها التنظيم والتبويب والترابط وفق نظرة شمولية عند الباحث الفاضل ؟

إذا جاز لي ــ بعد قراءة البحث مرات عدة ــ أن أجيب عن الاسئلة الثلاثة بجواب واحد مشترك بينها، كان هذا الجواب هو (لا) .

كان من الممكن برأيي معالجة الجوانب التربوية في السنّة المحمدية على مستويات مختلفة تبدأ بالفرد في تربية روحه وعقله وجسده، وتثني بالمجتمع : ابتداء بالأسرة ومروراً بالدولة وعلاقة الحاكم بالمحكوم، وانتهاء بالعلاقات الدولية في مستويات متعددة، وذلك حتى تكون الحركة واضحة، ويكون الإطار شاملًا لكل جوانب السنّة التي لا يمارى في أنها كانت تتناول كل ما سبق .

وثالث الملاحظات تتعلق بالمصدر الذي نبعت منه السنّة النبوية :

لقد أبدى البحث المنهج النبوي قائماً بذاته، وكان الأولى أن يجعله مستنداً إلى المبادىء الإسلامية الثابتة التي قررها الله تعالى في كتابه العزيز. ما أعنيه أبعد من مجرد الإشارة إلى أن من جوانب السنّة شرح ما أجمله القرآن الكريم ... ما أعنيه هو ضرورة إبراز تجسيد المنهج النبوي لروح الإسلام المتمثل بقول الحق جلّ وعلا : ﴿ **وما ينطق عن الهوى ،إن هو إلا وحي يوحى** ﴾ [1] صدق الله العظيم . إن الترابط بين منهج الرسول ﷺ في المسائل التي تخيرها الباحث الفاضل والمصدر الذي كان يرَتد إليه، بدا في البحث ضعيفاً وكان حقه أن يكون قوياً وبارزاً .

إن المطلع ليتساءل : ما الرابط الذي يربط بين موضوع المعرفة طريق السواء وبين الموضوع السابق عليه وهو المناخ الأسري. وهو يتساءل أيضاً : لماذا فصل موضوع المناخ الأسري عن الضبط الجنسي، وهكذا.

---

١ ــ النجم : ٣

ورابع الملاحظات تتعلق بطريقة المعالجة :

اقتصر الباحث في معالجة القضايا على الإطار التاريخي لها، ولم تمتد معالجته إلى تسليط الضوء على الممارسات السلبية في عصرنا الحاضر، كي تقارن بالايجابيات الحضارية التي انطوت عليها سنّة المصطفى عليه السلام قبل أربعة عشر قرناً من الزمان. إن مثل هذه المقارنة ضرورية لأنها تزيد المسائل وضوحاً ورسوخاً في النفوس والعقول .

وخامس الملاحظات تتعلق بشمولية السنّة :

عندما عرّف الباحث الفاضل السنّة قال : « أما السنّة في اصطلاح المحدثين فهي كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلقية أو سيرة ». لكنه في المعالجة اقتصر على السنّة القولية للرسول عليه السلام، ولم يتوقف عند أفعال الرسول، أو عند كونه قدوة في السلوك الأخلاقي، مع أنه ناقش هذه المسألة جيداً في كتابه نشأة التربية الإسلامية كما ألمحنا سابقاً .

وسادس الملاحظات خاصة باللغة :

لغة الباحث الفاضل واضحة سلسة، لكنها لم تخل من بعض الهنات التي قد يكون مصدرها الطباعة .

خاتمــة :

أما بعد، فإن البحث ــ مع كل الملاحظات التي ذكرت ــ عمل علمي أصيل. وهو ينطوي على جهد كبير وفائدة عظيمة، لذا لا يسعني إلا أن أسجل تقديري وثنائي على صاحبه العالم الجليل الأستاذ الدكتور سعيد اسماعيل علي، متمنياً له دوام النجاح في بحوثه التربوية القيمة التي يحرص أن يجمع فيها الأصالة الى الجدة دائماً .

والله من وراء القصد